سيد قطب

الإسلام ومشكلات الحضارة

دار الشروق

الإسْلام
ومُشكلات الحضَارة

الطبعة الشرعية التاسعة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبع الشرعية العاشرة
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الشرعية الحادية عشر
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

تدمير الإنسان

الحياة الإنسانية – كما هي سائرة اليوم وكما هي صائرة وفق جميع التقديرات الظاهرة – لا يمكن أن تستمر في طريقها هذا ، ولا بد لها من تغيير أساسي في القاعدة التي تقوم عليها . تغيير يعصمها من تدمير «الإنسان» ذاته ، بتدمير خصائصه الأساسية . فالحياة الإنسانية – بداهة – لا تستطيع أن تبقى إذا ما دمرت خصائص «الإنسان» .

وخط الحياة الحالي يمضي يوماً بعد يوم في تدمير خصائص الإنسان ؛ وتحويله إلى آلة من ناحية ، وإلى حيوان من ناحية أخرى .. وإذا كان هذا الخط لم يصل إلى نهايته بعد ؛ وإذا كانت آثار هذه النهاية لم تتضح اتضاحاً كاملاً .. فالذي ظهر منها حتى اليوم ، في الأمم التي وصلت إلى قمة الحضارة المادية ، يشي بتناقص الخصائص الإنسانية وضمورها وتراجعها ، بقدر ما يشي بنمو الخصائص الآلية والحيوانية وتضخمها وبروزها ..

.. وهذا يكفي ..

يكفي لتقرير أن خط الحياة يمضي يوماً بعد يوم في تدمير خصائص الإنسان ، ولتقرير أن الحياة الإنسانية لا يمكن – إذن – أن تمضي مع هذا الخط إلى نهايته .. ما لم يكن مقرراً تدميرها نهائياً .. والأمل في رحمة الله يمنع من توقع هذا المصير البائس ، ويوجه توقعاتنا إلى ناحية أخرى : ناحية تجنب الإنسانية – بفطرتها وطبيعتها ، وبعوامل الحدس والحذر

والاحتياط الكامنة في كيانها – لهذا المصير البائس ، بالتحول عن طريق الخطر في الوقت المناسب . واختيار خط آخر وطريق آخر . والتغلب على هذه الأزمة التي يجد «الإنسان» فيها نفسه على حافة الهاوية . وهو مندفع إليها بعنف ، وهو في الوقت ذاته لا يملك الخيار ، لأن عوامل كثيرة تكاد تفقده قوة الاختيار !

وفي كل مرة كانت الحياة «الإنسانية» والخصائص «الإنسانية» مهددة تهديداً مدمراً ماحقاً ، وقع التحول – بطريقة خفية ، كثيراً ما كانت مجهولة الأسباب في حينها – وتجنبت البشرية ذلك الدمار «الإنساني» . أما في هذه المرة فالتهديد أشد من كل ما عرفته البشرية من قبل من كل أنواع التهديدات .

ولقد كان الكثيرون عقدوا آمالهم في هذا التغيير على «الماركسية» . على المادية الجدلية ، وعلى التفسير الاقتصادي للتاريخ .. ولكن هذا لم يكن إلا وهماً . فالماركسية – مع التفسير المادي الجدلي للتاريخ – لا تمثل إلا دفعة في خط الدمار ذاته . وليست تحولاً أصلاً . لا في طبيعة الخط ولا في اتجاهه .. إنها القمة التي يصل إليها الخط المادي في التفكير ، والآلية المادية في تصور وتكييف الحياة البشرية ..

كذلك يتجلى فشل كل المحاولات الأخرى ، التي يراد بها وضع «أيديولوجية» جديدة ، تجد فيها البشرية غناء ، وتجد فيها مخرجاً من الأزمة الحادة التي انتهت إليها ، فكلها أفكار جزئية سطحية ؛ وكلها محاولات مصطنعة لا جذور لها في الفطرة البشرية !

وحين نتلفت من حولنا في الماضي والحاضر ، وفي المستقبل كذلك ،

لا نجد الحل المقترح لتجنيب البشرية ذلك الدمار ، وللخروج بها من هذه الأزمة الحادة ؛ وللاحتفاظ بـ «الإنسان» عن طريق الاحتفاظ بخصائصه الإنسانية – احتفاظاً نامياً متجدداً – إلا في التصور الإسلامي ، والمنهج الإسلامي ، والحياة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامي .

ومن ثم نعتقد أن قيام المجتمع الإسلامي ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية . وأنه إذا لم يقم اليوم فسيقوم غداً ، وإذا لم يقم هنا فسيقوم هناك . ليعصم البشرية من «تدمير الإنسان» عن طريق تدمير خصائصه الإنسانية ، ومن تدمير الحياة الإنسانية التي لا تقوم بغير إنسان محتفظ بخصائصه الإنسانية ، في حالة نماء وارتقاء .

* * *

ولكن كيف تبدو الحياة الإنسانية مهددة بتدمير الإنسان عن طريق تدمير خصائصه الإنسانية ، في ظل الحضارة القائمة ، وعلى امتداد الخط الذي تسير فيه الحياة الإنسانية اليوم – بصفة عامة – الأمر الذي يجعل قيام المجتمع الإسلامي ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية ؟

لعله يحسن أن نكشف عن أهم عناصر هذه المأساة في اختصار ..

إن أهم عناصر هذه المأساة تتمثل في :

١ – جهلنا المطبق بالإنسان – على الرغم من سعة علمنا نسبياً بالمادة ، وبطرائق التصنيع المادية ، القائمة على أصول فنية راقية – ومن ثم عدم استطاعتنا أن نضع له – من عند أنفسنا – نظاماً شاملاً لجوانب حياته كلها ، يتناسب مع طبيعته وخصائصه ، ويحتفظ بها جميعاً في حالة تجدد ونمو وازدهار ، موسوم بالتناسق والاعتدال .

٢ – تخبط الحياة البشرية لقيامها على أساس من هذا الجهل ، منذ افترق طريقها عن المنهج الذي وضعه للإنسان صانعه الحكيم ، الخبير بفطرته وبخصائصه .. المنهج المراعى فيه تلبية حاجته الفطرية الحقيقية الكاملة ، وتنمية خصائصه وترقيتها كذلك ، حتى تتكافأ مع الدور المقسوم لهذا الكائن في الخلافة في الأرض ، وتنمية الحياة فيها وترقيتها ، واستغلال كنوزها وطاقاتها كلها في التعمير والتنمية والارتقاء .

٣ – قيام حضارة مادية لا تلائم الإنسان ، ولا تحترم خصائصه تعامله بالمقاييس الآلية – التي هي في دائرة علمنا ومعرفتنا المترقية – وبالمقاييس الحيوانية ، التي أمكن دراستها في عالم الحيوان !

٤ – بروز آثار هذه الحضارة وتضخمها في الأمم التي وصلت إلى قمة الحضارة المادية ، وسارت شوطاً بعيداً في تطبيق المنهج الآلي الحيواني على الحياة الإنسانية ، بدون كبير اعتبار للخصائص الإنسانية الأصلية ، التي تفرق « الإنسان » من « الآلة » ومن « الحيوان » . وظهور طلائع مفزعة ، تنذر بما وراءها من الدمار ..

وتناول هذه العناصر بشيء من الشرح والإيضاح يكفي لتصوير حقيقة المأساة التي تعيشها البشرية بجملتها اليوم – شاعرة أو غير شاعرة – ولتصوير حقيقة الكارثة التي تنحو البشرية بجملتها نحوها – شاعرة كذلك أو غير شاعرة – كما يكفي كذلك لإثارة التطلع إلى رحمة الله لتجنيب البشرية ذلك المصير البائس ، بالاستماع إلى نداء الفطرة ، وصوت الله ، ولو في آخر اللحظات .

الإنسان ذلك المجهول

هذا العنوان ليس من عندنا ، إنما هو من عند « عالم » أوربي – أمريكي – لا يجادل « علماء » الحضارة الحديثة في مكانته « العلمية » ولا في « حداثة » نظرياته – أو دراساته بتعبير أدق – ولا في جديتها .

إنه عنوان كتاب مشهور للدكتور « ألكسيس كاريل »(١) .

والكاتب يعرّفنا بنفسه وبكتابه في مقدمة هذا الكتاب . وسنحتاج أن ننقل قسماً كبيراً من هذا التعريف في هذا الفصل ؛ لأهميته في الاستدلال الذي نرمي إليه ؛ وذلك قبل أن نقتبس آراء هذا « العالم » الكبير عن « جهلنا المطبق » بالإنسان ...

« لست فيلسوفاً ، ولكني رجل علم فقط ؛ قضيت الشطر الأكبر من حياتي في المعمل ، أدرس الكائنات الحية ؛ والشطر الباقي في العالم الفسيح ، أراقب بني الإنسان ، وأحاول أن أفهمهم .. **ومع ذلك فإنني لا أدعي أنني أعالج أموراً خارج نطاق حقل الملاحظة العلمية .**

---

(١) ولد الدكتور كاريل بالقرب من ليون في فرنسا ، وحصل على إجازة الطب بها ، كما حصل على إجازة العلوم من ديجون . وبعد أن مارس التدريس في جامعة ليون عدة أعوام رحل إلى الولايات المتحدة . واشتغل في معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك . وبقي به قرابة ثلاثين عاماً حتى اعتزل العمل به سنة ١٩٣٩ . ثم عهدت إليه وزارة الصحة الفرنسية بمهمة خاصة تتصل بالحرب ، وكانت هذه المهمة تكملة لمهمة اضطلع بها إبان الحرب العالمية الأولى ، عندما كان يعمل جراحاً مع القوات الفرنسية والبريطانية والأمريكية ... ومنح جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة ..

«إنني أحاول أن أصف في هذا الكتاب ما هو معروف بعد أن أفصله بكل وضوح عن كل مديح . كما أعترف بوجود المجهول غير المعروف .

«ولقد اعتبرتُ «الإنسان» ملخصاً للملاحظات والتجارب ، في جميع الأوقات والبلدان ، بيد انني لم أصف إلا ما رأيته بناظري ، أو عرفته مباشرة من أولئك الذين كنت على صلة بهم . وكان من حسن حظي ، أن سمح لي مركزي بأن أدرس – دون بذل أي مجهود ، أو الطمع في أي ثناء – ظواهر الحياة في تعقيدها المخيف . فلاحظت كل وجه من وجوه النشاط البشري بصفة عملية ، كما انني ملم بكل ما يكتنف الفقير والغني ، الصحيح والسقيم ، المتعلم والجاهل ، ضعيف العقل والمجنون ، الذكي والمجرم ... الخ .. كذلك فإنني أعرف الفلاحين والعمال ، الكتبة وأصحاب المتاجر ، الماليين وأصحاب المصانع ، الساسة ورجال الحكم ، الجنود وأساتذة الجامعات ، المدرسين ورجال الدين ، البرجوازيين والأرستقراطيين .. ولقد ألقت بي الظروف في طريق الفلاسفة والفنانين ، والشعراء والعلماء ، والعباقرة والقديسين .. كما درست في الوقت نفسه التركيب الميكانيكي الغائر في أعماق الأنسجة وتلافيف المخ ، الذي هو في الحقيقة الأساس العميق للظواهر العضوية والعقلية .

«إنني مدين لفنون الحياة العصرية ، لأنها مكنتني من مشاهدة هذا المنظر العظيم ، كما أتاحت لي فرصة توجيه انتباهي إلى عدة موضوعات في وقت واحد .. إنني أعيش في العالم الجديد والقديم أيضاً .. وأمتاز بأنني أقضي معظم وقتي في «معهد روكفلر للبحث الطبي» كواحد من العلماء الذين جمعهم «سيمون فلكسنر» معاً في هذا المعهد .. فهناك أفكر في ظواهر الحياة حين يحللها الخبراء الذين لا يبارون ، أمثال «ملتزر» و «جاك لويب» و «نجيوشي» ، وكثيرون غيرهم . ولما اتصف به «فلكسنر» من عبقرية ونبوغ ، فقد دُرستْ الكائنات الحية بنظرة فسيحة الأفق ، بشكل

لم يسبق له مثيل – فالمادة تفحص وتستقصى في كل قسم من معامل هذا المعهد ، بحثاً عن ارتقائها وتطورها من ناحية صنع الإنسان .

«وبمساعدة أشعة إكس يكشف علماء الطبيعة عن بناء جزئيات مواد أنسجتنا الأكثر بساطة – أي العلاقات الاتساعية للذرات التي تدخل في تركيب هذه الجزئيات – ويعكف الكيماويون ، والكيماويون الطبيعيون ، على تحليل المواد الأكثر تعقيداً ، التي توجد بداخل الجسم ، كهيموجلوبين الدم ، وبروتينات الأنسجة ، واخلاط الجسم ، والتخمرات التي تسبب ذلك الانقسام المستمر ، وإيجاد ذلك المجموع الكلي الهائل من الذرات .

«وهناك كيماويون آخرون لم يقصروا اهتمامهم في تركيبات الجزئيات وحدها ، وإنما انصرفوا إلى التفكير في علاقات تلك التركيبات إحداها بالأخرى ، عندما تدخل عصارات الجسم .. أو باختصار .. ذلك التعادل الطبيعي – الكيماوي الذي يحفظ دائماً تركيب مصل الدم ، بالرغم من التغير الذي يطرأ على الأنسجة بصفة مستمرة .

«وهكذا ألقي الضوء على الجوانب الكيماوية للظاهرة الفسيولوجية ، لأن كثيرين من علماء وظائف الأعضاء يدرسون – مستعينين في ذلك بفنون شديدة الاختلاف – التركيبات الأكبر التي تنتج من مجموع الجزئيات وترتيبها ، كذا خلايا الأنسجة والدم ، أو بمعنى آخر : مادة الحياة نفسها .. إنهم يختبرون هذه الخلايا ، وطرق اتحادها ، والقوانين التي تحكم علاقاتها بما يحيط بها ، وتأثير الوسط الكوني على هذا المجموع ؛ كذا تأثيرات المواد الكيماوية على الأنسجة والشعور .

«وهناك اخصائيون آخرون ، وقفوا أنفسهم على البحث في تلك الكائنات الضئيلة : الفيروس والبكتريا ، التي تعزى اصابتنا بالأمراض المعدية إلى وجودها في دمنا . كذا الوسائل الرائعة التي يستخدمها الإنسان في مقاومتها ..

وأيضاً الأمراض القتالة كالسرطان ، وأمراض القلب ، والتهاب الكلى .

«وأخيراً فإن مشكلة «الفردية»[1] الخطيرة ، وأساسها الكيماوي تهاجم الآن بنجاح .

«وقد أتيحت لي فرصة استثنائية للاستماع إلى رجال عظماء تخصصوا في هذه الأبحاث ، وتتبع النتائج التي أسفرت عنها تجاربهم .. وهكذا بدت لي الجهود التي تبذلها المادة الجامدة في نظام الجسم ، وخواص الكائنات الحية ، وتناسق جسمنا وعقلنا .. بدت لي هذه الأشياء في أوج جمالها .

وعلاوة على ذلك فقد درست أكثر الموضوعات المختلفة ، من الجراحة ، إلى فسيولوجية الخلية ، إلى الميتافيزيقا[2] .

«ولقد كان ذلك مستطاعاً بسبب التسهيلات التي وضعت لأول مرة تحت تصرف العلم لكي يؤدي رسالته» ... (ص ٥ – ص ٨) .

* * *

هذا الرجل الذي أتيحت له فرصة الانتفاع بكل هذه التيسيرات ، والذي اطلع على نتائج هذه البحوث مجتمعة حول «الإنسان» هو الذي يصدر بعد ذلك كتاباً يسميه «الإنسان ذلك المجهول»[3] . والذي يقرر أن حقيقة علمنا عن الإنسان لا شيء ! وأننا نعيش في «جهل مطبق» بهذا الكائن ، الذي هو نحن !

ولندعه هو يتكلم :

---

(١) كون كل فرد إنساني له خصائص ذاتية – غير الخصائص الإنسانية المشتركة – تجعله كائناً بذاته أو عالماً بذاته .

(٢) ما وراء الطبيعة .

(٣) تعريب شفيق أسعد فريد . منشورات مكتبة المعارف ببيروت .

«هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة .. فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها ، بسداد وفصاحة ، باللغة الحسابية . وقد انشأت هذه العلوم عالماً متناسقاً كتناسق آثار اليونان القديمة . إنها تنسج حول هذا العالم نسيجاً رائعاً من الإحصاءات والنظريات .

«بيد أن موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، حتى ليبدو كأن الذين يدرسون الحياة قد ضلوا في غاب متشابك الأشجار ؛ أو أنهم في قلب دغل سحري ، لا تكف أشجاره التي لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها ! فهم يرزحون تحت عبء أكداس من الحقائق ، التي يستطيعون أن يصفوها ، ولكنهم يعجزون عن تعريفها أو تحديدها في معادلات جبرية . فمن الأشياء التي تراها العين في عالم الماديات ، سواء كانت ذرات أم نجوماً ، صخوراً أم سحباً ، صلباً أم ماء ... أمكن استخلاص خواص معينة كالثقل والأبعاد الاتساعية .. وهذه المستخلصات — وليست الحقائق العلّية — هي مادة التفكير العلمي .. وملاحظة الأشياء تمدنا فقط بأقل صور العلم شأناً ، ونعني بها الصورة الوصفية . فالعلم الوصفي يرتب الظواهر . بيد أن العلاقات التي لا تتغير ، بين الكميات غير القابلة للتغيير — أي القوانين الطبيعية — تظهر فقط عندما يصبح العلم أكثر معنوية . وما ذلك النجاح العظيم السريع الذي نراه في علمي الطبيعة والكيمياء إلا لأنهما علمان معنويان كميان . فعلى الرغم من أنهما لا يدعيان أنهما يكشفان القناع عن الطبيعة النهائية للأشياء ، فإنهما يمدانا بقوة التنبؤ بحوادث المستقبل ، وتقرير كيفية وقوعها طبقاً لإرادتنا . وبتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريباً على كل شيء موجود على ظهر البسيطة .. فيما عدا أنفسنا ..

«ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة — والإنسان بصفة خاصة — لم يصب مثل هذا التقدم .. إنه لا يزال في المرحلة الوصفية .. فالإنسان

كل لا يتجزأ ، وفي غاية التعقيد ؛ ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له ؛ وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه ، أو في أجزائه ، في وقت واحد . كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي .

ولكي نحلل أنفسنا فإننا مضطرون للاستعانة بفنون مختلفة ؛ وإلى استخدام علوم عديدة . ومن الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم إلى رأي مختلف في غايتها المشتركة ، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط . وبعد أن تضاف هذه المستخلصات بعضها إلى بعض ، فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة .. إنها تخلف وراءها بقية عظيمة الأهمية ، بحيث لا يمكن إهمالها .

« إن التشريح والكيمياء ، والفسيولوجيا . وعلم النفس ، والبيداجوجيا (فن التعليم) والتاريخ وعلم الاجتماع ، والاقتصاد السياسي .. لا تلم بجوانب موضوعها كلها . و « الإنسان » – كما هو معروف للإخصائيين – أبعد من أن يكون « الإنسان الجامد » . فـ « الإنسان الحقيقي » لا يزيد أن يكون رسماً بيانياً ، يتكون من رسوم بيانية أخرى أنشأتها فنون كل علم . وهو – في الوقت نفسه – « الجثة » التي شرحها البيولوجيون (علماء الحياة) ، و « الشعور » الذي لاحظه علماء النفس وكبار معلمي الحياة الروحية ، و « الشخصية » التي أظهر التأمل الباطني لكل إنسان أنها كامنة في أعماق ذاته .. إنه – أي الإنسان – عبارة عن « المواد الكيماوية » التي تؤلف الأنسجة وأخلاط أجسامنا .. إنه تلك الجمهرة المدهشة من « الخلايا والعصارات المغذية » التي درس الفسيولوجيون (علماء وظائف الأعضاء) قوانينها العضوية .. إنه ذلك « المركب من الأنسجة والشعور » الذي يحاول علماء الصحة والمعلمون أن يقودوه إلى الدرجات العليا أثناء نموه مع الزمن .. إنه ذلك « الكائن الحي العالمي » الذي يجب أن يستهلك بلا انقطاع السلع التي تنتجها المصانع ، حتى يمكن أن تظل الآلات – التي جعل لها عبداً – دائرة بلا توقف .. ولكنه

قد يكون أيضاً شاعراً ، أو بطلاً أو قديساً .. إنه ليس فقط ذلك المخلوق شديد التعقيد الذي تحلله فنوننا العلمية ، ولكنه أيضاً تلك «الميول والتكهنات وكل ما تنشده الإنسانية من طموح .

«وكل آرائنا عنه مشربة بالفلسفة العقلية .. وهذه الآراء جميعاً تنهض على فيض من «المعلومات غير الدقيقة» بحيث يراودنا إغراء عظيم لنختار من بينها ما يرضينا ويسرنا فقط . ومن ثم فإن فكرتنا عن «الإنسان» تختلف تبعاً لإحساساتنا ومعتقداتنا .. فالشخص المادي والشخص الروحي يقبلان نفس التعريف الذي يطلق على بلورة من «الكلوريد» . ولكنهما لا يتفقان أحدهما مع الآخر في تعريف «الكائن الحي» .. وعالم وظائف الأعضاء في «عمليات الجسم الميكانيكية» وعالم وظائف الأعضاء الذي يبحث في «مذهب الحياة نفسه» لا يمكن أن ينظرا إلى جسم الإنسان من زاوية واحدة . وكذلك فإن الكائن الحي كما يراه «جاك لويب» ، يختلف اختلافاً عظيماً عما يراه «هانز» و «ريش» .

«وفي الحق لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه ، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان ، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا .. **إننا لا نفهم الإنسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة ! !**

«وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ، ما زالت غير معروفة . فنحن لا نعرف

حتى الآن ، الإجابة عن أسئلة كثيرة مثل :

«كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكوّن المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

«كيف تقرر «الجينس» (ناقلات الوراثة) في نواة البيضة الملقحة ، صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

«كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدماً الدور الذي قدّر لها أن تلعبه في حياة المجموع ، وتساعد العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته .

«ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي ؟ إننا نعرف أننا مركّب من الأنسجة ، والأعضاء ، والسوائل والشعور . ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً . إننا ما زلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن فسيولوجية الخلايا العصبية .. إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟ على أي وجه تستطيع الخصائص العضوية العقلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة طريق الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ ، والنظم النفسية والأدبية ؟

«إننا ما زلنا بعيدين جداً عن معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والعضلات والأعضاء ، ووجوه النشاط العقلي والروحي .. وما زلنا نجهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ، ومقاومة التعب ، والكفاح ضد الأمراض .

«إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبي ، وقوة الحكم ، والجرأة .. ولا ما هي الأهمية النسبية للنشاط العقلي والأدبي .. كذلك النشاط الديني .

«أي شكل من أشكال النشاط مسئول عن تبادل الشعور أو الخواطر ؟

«لا شك مطلقاً في أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة هي التي تقرر السعادة أو التعاسة ، النجاح أو الفشل .. ولكننا لا نعرف ما هي هذه العوامل .. إننا لا نستطيع أن نهب أي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية .

«وحتى الآن فإننا لا نعرف أي البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدين وتقدمه .

«هل في الامكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجي والروحي ؟

«كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه في المدنية العصرية ؟

«وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها ، يمكن أن تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة لنا .. ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب .. فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ، غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب ... » ص (١٣ — ١٨) .

* * *

ولكن لماذا كان جهلنا مطبقاً بحقيقة الإنسان ؟ لماذا كانت الحقيقة تسير في موكب من الأشباح ، بحيث لا نستطيع رؤيتها بوضوح ؟ ولماذا كان الذين يدرسون الحياة كمن ضلوا طريقهم في غاب متشابك الأشجار ، أو في قلب دغل سحري ، لا تكف أشجاره التي لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها ؟

هل كان ذلك لقصور وسائلنا العلمية في فترة من الفترات ؟ أم لظروف

وقتية من ظروف حياتنا الإنسانية ؟ ومن ثم يكون هناك أمل كبير وفرص كثيرة لتكملة تلك الوسائل ، وتغيير هذه الظروف ، ثم الوصول إلى معرفة الحقيقة الإنسانية كاملة واضحة محددة ؟

أم أن هناك أسباباً ثابتة في طبيعة الحقيقة الإنسانية من جهة ، وفي طبيعة تفكيرنا وعقولنا من جهة أخرى ، هي التي تنشئ تعذر الوصول إلى هذه الحقيقة بمثل الوضوح والدقة المعهودين في عالم المادة ؟

يقرر العالم الكبير وجود هذه الأسباب وتلك ؛ ويقرر أنه لا أمل في إزالة هذا النوع الأخير من أسباب تعذر رؤية هذه الحقيقة . يقرر هذا في أسلوب العالم ، الذي واجه هذه الحقيقة ، وعرف طاقة العلم وحدوده في مجالها .. ومع أن الاقتباس من كلامه سيطول ، فإننا نؤثر أن ندعه هو يتكلم في هذه النقطة بأسلوبه الخاص ومن وجهة نظره التي قد نوافقه على بعضها ، ونخالفه في بعضها :

« قد يعزى جهلنا في الوقت ذاته ، إلى طريقة حياة أجدادنا . وإلى طبيعتنا المعقدة وإلى تركيب عقلنا ...

« مهما يكن من أمر ، فقد كان على الإنسان أن يعيش . وهذه الضرورة طالبته بقهر العالم الخارجي . وإذ لم يكن له مفر من الحصول على الغذاء والمأوى ، كما لم يكن له مفر من قتال الحيوانات المتوحشة وغيره من بني الانسان .. ولآماد طويلة لم يفز أجدادنا الأوائل بوقت فراغ ، كما لم يشعروا بأي ميل إلى دراسة أنفسهم ، إذ كانوا يستخدمون عقولهم في أمور أخرى كصناعة الأسلحة والأدوات ، واكتشاف النار ، وتدريب الماشية والجياد ، واختراع المركبات ، وزراعة الحبوب .. الخ .. وقبل أن يهتموا بتركيب أبدانهم وعقولهم بوقت طويل ، فكروا في الشمس والقمر والنجوم ، والتيارات المائية ، وتوالي الفصول الأربعة .. ولهذا تقدم علم الفلك بخطى

واسعة ، في عهد كان علم الفسيولوجيا لا يزال غير معروف بتاتاً .. فقد قهر جاليلو الأرض وهي مركز المجموعة الشمسية . وذلك على أنها تابع متواضع من توابع الشمس . بينما لم تكن لدى معاصريه أية فكرة ، ولو أولية ، عن تركيب ووظائف العقل والكبد ، وغدة الثايارويد (الغدة الدرقية) . ونظراً لأن الجسم البشري يؤدي وظائفه بطريقة مرضية في أحوال الحياة الطبيعية ، ولا يحتاج لأي اهتمام ، فقد تقدم العلم في الاتجاه الذي وجهه إليه حب الاستطلاع البشري - أي في اتجاه العالم الخارجي .

«ومن بين ملايين الملايين من الجنس البشري الذين سكنوا هذا العالم بالتعاقب ، كان يولد أشخاص قلائل ، من حين لآخر ، وهبتهم الطبيعة[1] قوى مدهشة نادرة ، كسرعة إدراك الأشياء المجهولة ، والخيال الذي ابتدع عوالم جديدة ، والقدرة على اكتشاف العلاقات الخفية الموجودة بين ظواهر معينة .. وقد استكشف هؤلاء الرجال العالم المادي .. وهو عالم بسيط التركيب . ومن ثم فقد استسلم بسرعة لهجمات العلماء ، وسلم أسرار قوانين معينة من قوانينه . وقد مكنتنا معرفة هذه القوانين من استخدام عالم المادة لفائدتنا . فإن التطبيق العملي للاكتشافات العلمية يدر ربحاً على أولئك الذين يحسنونها ويرتقون بها . وفضلاً عن ذلك ، فإن استخدامها يؤدي إلى تسهيل حياة الجميع .. إن هذه الاكتشافات تسر الجمهور ، لأنها تزيد في راحته ورفاهيته . وبالطبع أصبح كل شخص أكثر اهتماماً بالاكتشافات التي تقلل من بذل المجهود الآدمي ، وتخفف العبء عن

---

(١) على الرغم من إيمان الرجل بالله .. الإيمان القائم على مشاهدته للحقيقة في المجال العلمي .. فإنه تندس في تعبيره مثل هذه الجملة «وهبتهم الطبيعة» بحكم الوراثات والرواسب الثقافية الغائرة . وهو تعبير لا معنى له في العقل المؤمن ! فإن الواهب هو الله ؛ والطبيعة - بمعنى الكون - من خلق الله ، وهي غير قادرة على الهبة ولا الخلق ، لأنها ليست إلهاً ، فلا إله إلا الله . ومن ثم لا خالق إلا الله . ولا واهب إلا الله .

العامل ، وتزيد في سرعة وسائل المواصلات ، وتلطف من خشونة الحياة ، أكثر من اهتمامه بالاكتشافات التي تلقي بعض الضوء على أجسامنا وإحساساتنا .. وهكذا أدى قهر[1] العالم المادي ، الذي استأثر باهتمام وإرادة الإنسان بصفة مستمرة ، إلى نسيان العالم العضوي والروحي نسياناً تاماً .

«وحقيقة الأمر أنه لم يكن مناص من معرفة ما يحيط بنا . ولكن ذلك لا يعني أن معرفة طبيعتنا أقل أهمية .. ومع ذلك فقد اجتذب المرض والألم والموت ، وإلى حد ما تلك اللهفة الغامضة من نمو تلك القوة الخفية التي تسمو على عالمنا المادي .. كل هؤلاء اجتذبوا انتباه بني الإنسان – إلى درجة ما – نحو العالم الداخلي لأجسامهم وعقولهم .

«وقد قنع الطب في بادئ الأمر ، بالمشكلة العملية ، أي إراحة الإنسان من المرض عن طريق الوصفات . ولكنه – أي الطب – أدرك أخيراً ، أن الطريقة الفعالة لمنع المرض أو الشفاء منه ، هي فهم الجسم الطبيعي والجسم المريض فهماً تاماً .. وبعبارة أخرى إنشاء العلوم التي تعرف باسم «علم التشريح» و «علم كيمياء الحياة» و «علم وظائف الأعضاء» و «علم الأمراض» ..

«وعلى كل حال كان يبدو لأسلافنا أن لغز وجودنا ، ومتاعبنا الأدبية ولهفتنا على المجهول ، وظاهرة علم ما وراء المادة ، أكثر أهمية من الآلام

---

(١) التعبير بكلمة «قهر» ظاهرة من ظواهر العقلية الغربية ؛ تنشأ عن راسب من رواسب الأساطير الإغريقية والرومانية ؛ ويغذيها منطق «القوة» السائد في أوروبا الاستعمارية .. إذ تقوم كل علاقة في حس الأوروبي على أساس «قاهر» و«مقهور» .. إذ ليس هناك علاقة «التفاهم» أو «الصداقة» ! أما في الحس المسلم فالله هو الذي يسخر الكون للإنسان ، والإنسان «يتعرف» إلى النواميس الكونية فينتفع بها بإذن الله .. (يراجع بتوسع كتاب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته) .. للمؤلف ..

البدنية والأمراض . ومن ثم فقد اجتذبت دراسة الحياة الروحية والفلسفة أنظار رجال عظماء أكثر مما اجتذبتهم دراسة الطب . فعرفت قوانين «التصوف» قبل أن تعرف قوانين علم وظائف الأعضاء .. ولكن أمثال هذه القوانين عرفت فقط عندما ظفر الإنسان بوقت فراغ كاف ، جعله يحول قليلاً من اهتمامه إلى أشياء أخرى غير قهر العالم الخارجي .

«**وثم سبب آخر للبطء الذي اتسمت به معرفتنا لأنفسنا .. وذلك أن تركيب عقولنا يجعلنا نبتهج بالتفكير في الحقائق البسيطة ، إذ أننا نشعر بضرب من النفور حين نضطر إلى تولي حل مشكلة معقدة مثل تركيب الكائنات الحية والإنسان .. فالعقل – كما يقول برجسون – يتصف بعجز طبيعي عن فهم الحياة .. وبالعكس فإننا نحب أن نكشف في جميع العوالم ، تلك الأشكال الهندسية الموجودة في أعماق شعورنا** .. إن دقة النسب البادية في تماثيلنا ، وإتقان آلاتنا ، يعبران عن صفة أساسية لعقلنا .. فالهندسة غير موجودة في دنيانا وإنما أنشأناها نحن . إذ ان وسائل الطبيعة لا تكون أبداً بالدقة التي تتصف بها وسائل الإنسان . فنحن لا نجد في العالم ذلك الوضوح وتلك الدقة اللتين يتصف بهما تفكيرنا .. ومن ثم فإننا نحاول أن نستخلص من تعقد الظواهر ، بعض النظم البسيطة التي تحمل عناصر ، لإحداها بالأخرى علاقات معينة ، تكون قابلة للوصف حسابياً . وقدرة الاستخلاص هذه التي يتمتع بها العقل البشري مسئولة عن ذلك التقدم الرائع الذي أحرزه علماء الطبيعة والكيمياء .

«ولقد لقيت الدراسة الطبيعية – الكيماوية للكائنات الحية نجاحاً مماثلاً ، فقوانين الطبيعة والكيمياء متماثلة في عالم الكائنات الحية وعالم الجماد – كما خطر ببال كلود برنار منذ أمد بعيد – وهذه الحقيقة توضح لماذا اكتشف علم وظائف الأعضاء الحديث مثلاً ، أن استمرار قلوية الدم وماء المحيط تفسرها قوانين متماثلة ، وأن النشاط الذي تستهلكه العضلات

المتقلصة يقدمه تخمر السكر .. الخ ، وأن النواحي الطبيعية – الكيماوية للكائنات الحية يسهل تقريباً فحصها ، مثل تلك النواحي في الأشياء الأخرى الموجودة في العالم المادي . تلك هي المهمة التي نجح علم الوظائف العام في تحقيقها .

« إن دراسة الظواهر الفسيولوجية الحقة – أي تلك الظواهر التي تنتج من تنظيم الكائن الحي – تواجه عقبات أكثر أهمية ، إذ أن شدة ضآلة الأشياء التي يجب تحليلها ، تجعل من المستحيل استخدام الفنون العادية لعلمي الطبيعة والكيمياء .. فأي طريقة يمكن أن تكشف القناع عن التركيب الكيماوي لنواة الخلية الجنسية ، والكروموسومات ، والجينس التي تؤلف هذه الكروموسومات ؟ مهما يكن فإن المجموع الكلي للمواد الكيماوية الشديدة الضآلة ، على أعظم جانب من الأهمية ، لأنها تحتوي على مستقبل الفرد والجنس . كما أن قابلية أنسجة معينة لسرعة العطب – مثل المادة العصبية – عظيمة إلى درجة أن دراستها في حالة الحياة مستحيلة تقريباً .

« ونحن لا نملك أي فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه ، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه .. وعقلنا الذي يحب ذلك الجمال البسيط للتراكيب الحسابية ، ينتابه الفزع حينما يفكر في تلك الأكداس الهائلة من الخلايا ، والأخلاط ، والإحساسات التي يتكون منها الفرد .. ومن ثم فإننا نحاول أن نطبق على هذا المخلوط ، الأفكار التي ثبتت فائدتها في مملكة الطبيعة والكيمياء والميكانيكيات .. كذا في النظم الفلسفية والدينية .. ولكن مثل هذه المحاولة لا تلقى نجاحاً كبيراً ، لأن أجسامنا لا يمكن أن تختزل إلى نظام طبيعي – كيماوي ، أو إلى كيان روحي ..
بالطبع إن على « علم الإنسان » أن يستخدم آراء جميع العلوم الأخرى ، ولكن عليه أيضاً أن ينمي آراءه الخاصة ، لأنه علم جوهري مثل علوم الجزئيات والذرات والإلكترونات .

« صفوة القول : أن التقدم البطيء في معرفة بني الإنسان – إذا قورن بالتقدم الرائع في علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكا – يعزى إلى :

١ – حاجة أجدادنا إلى وقت فراغ .
٢ – وإلى تعقد الموضوع .
٣ – وإلى تركيب عقولنا .

« وهذه العقبات أساسية . وليس هناك أمل في تذليلها . وسيظل التغلب عليها شاقاً يستلزم جهوداً مضنية ..

« إن معرفة نفوسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ، الجمال ، التي بلغها علم المادة . إذ ليس من المحتمل أن تختفي العناصر التي أخرت تقدم علم الإنسان .. فعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان « هو أصعب العلوم جميعاً » .

* * *

وهكذا يتضح من تقريرات هذا العالم الكبير ، الذي أتيحت له فرصة الاطلاع على نتائج البحوث الضخمة ، أن هناك فارقاً أساسياً بين علوم المادة وعلوم الحياة . وأن هنالك بالذات فارقاً أساسياً بين طبيعة علوم المادة ، وطبيعة علم الإنسان ؛ وبين طبيعة موقف العقل من هذه وتلك . وأن هذا الفارق كامن في أمرين ثابتين ، لا يتعلقان ببيئة ولا زمان ، ولا بظروف وقتية مرهونة بالزمان والمكان .. هما :

١ – تعقد الموضوع .
٢ – طبيعة تركيب عقولنا .

وأن تقدم الإنسان في علوم المادة ، وإبداعه في العالم المادي ، وصحة بحوثه ونظرياته في ذلك الحقل ، لا تقتضي تقدمه في علم الإنسان ،

ولا صحة بحوثه ونظرياته في هذا الحقل . وأن هذا الحقل غير ذاك . في طبيعتهما أولاً ، ثم في مدى التقدم الذي وصل إليه الإنسان بالفعل ثانياً . ثم فيما ينتظر تقدم الإنسان في كليهما ثالثاً .

وأن « جهلنا مطبق » بالإنسان كما يقرر « العالم » الكبير ...

* * *

هذا الواقع « العلمي » من : « الجهل المطبق » بالإنسان – مع العلم النسبي بالمادة – نتيجة متوقعة ، وثمرة طبيعية ، لحقيقة دور الإنسان في الأرض ، وغاية وجوده الإنساني في الكون ، كما تبدو من خلال التصور الإسلامي .. والإسلام يرتب على هذه الحقيقة نتائجها ، فيطلق يد الإنسان في عمارة الأرض ، واستخدام طاقاتها وخاماتها . والتحليل فيها والتركيب ، والتحوير فيها والتعديل .. بينما هو يضع لهذا الإنسان منهج حياته ، الذي يحكم هذه الحياة ، ولا يكل إليه هو وضع هذا المنهج ، لأنه مزود بطاقات معينة ليتحكم في المادة عن علم – نسبي طبعاً – بينما هو غير مزود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه ، حتى يتحكم في أمرها عن علم كما هو يتحكم في المادة .

فالإنسان – في التصور الإسلامي – هو سيد هذه الأرض ، بخلافته فيها عن الله ، وكل ما فيها مسخر له ، بقدرة الله تعالى ، وقد أوتي إمكان العلم بشؤونها ، هبة من الله سبحانه ، والاستمتاع بطيباتها وجمالها ، نعمة منه خالصة .. وليست الأرض وحدها وكل ما فيها من أحياء وأشياء .. ولكن كذلك السماوات مهيأة لمساعدة الإنسان في خلافته في الأرض ، ومراعىً في بنائها دور الإنسان في هذه الخلافة . إنه أمر عظيم هائل .. ولكنه كذلك !

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء

فسوّاهن سبع سماوات . وهو بكل شيء عليم . وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعلٌ في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون . وعلّم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين .. » (البقرة ٢٩ — ٣٤)

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

(الجاثية : ١٢ — ١٣)

«والأنعام خلقها لكم ، فيها دفءٌ ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشِقِّ الأنفس ، إن ربّكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها ، وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل . ومنها جائرٌ . ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تُسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ، إن في ذلك لآية لقوم يذّكّرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا

من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » ...
(النحل : ٥ — ١٦)

ولكن هذا الإنسان – في التصور الإسلامي كما هو في الحقيقة – على كل ما استودعه الله من أمانة الخلافة الكبرى في هذا الملك العريض . وعلى كل ما سخر له من القوى والطاقات والأشياء والأحياء فيه ، وعلى كل ما أودعه هو فيه من طاقات المعرفة والاستعداد لإدراك الجوانب اللازمة له في الخلافة من النواميس الكونية .. على كل هذا هو مخلوق ضعيف ، تغلبه شهواته أحياناً ، ويحكمه هواه أحياناً ، ويقعد به ضعفه أحياناً ، ويلازمه جهله بنفسه في كل حين .. ومن ثم لم يترك أمر نفسه ومنهجه في الحياة لشهواته وهواه وضعفه وجهله .. ولكن أكمل الله عليه نعمته ورعايته ، فتولى عنه هذا الجانب ، الذي يعلم – سبحانه – أن الإنسان لا يقدر عليه قدرته على المادة ، ولا يعلم بمقتضياته علمه بقوانين المادة .

وأول ما ظهر من ضعفه وعجزه وخضوعه للإغراء والشهوات ، ما يصوره القرآن الكريم من استسلامه لإغواء الشيطان له بشهوة الخلد وشهوة الملك ، ونسيانه أنه عدوه الذي يتربص به ، ونسيانه كذلك تحذير الله له .. وهو تصوير للحقيقة الخالدة في الإنسان – ما لم يعتصم بالله ومنهجه للحياة – وإلا فهو الشقاء والنكد في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى :

«ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسي ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا ، إلا إبليس أبى . فقلنا : يا آدم إن هذا عدوٌ لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان :

قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها ، فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال : اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني هدى : فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ..

(طه : ١١٥ - ١٢٧)

وتتواتر الإشارات إلى جهل الإنسان بأمر نفسه ومستقبله ومصيره ومآلات أفعاله ، مع تأثره بالشهوات وبالهوى وبالضعف **بحيث لا يصلح - بجهالته هذه وضعفه وهواه - لأن يتولى وضع منهج لحياته هو ، وإن كان مزوداً بالقدرة على استخدام المادة ؛ ومعرفة قوانينها اللازمة له في الخلافة .. في إطار المنهج الذي رسمه الله لحياته .**

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ... »

(الروم : ٦ - ٧)

« ويسألونك عن الروح : قل : الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ... (الإسراء : ٨٥)

« وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير » ... (لقمان : ٣٤)

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً » ...

(النساء : ١٩)

«فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» ... (النساء : ١٢)

«وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» ... (البقرة : ٢١٦)

«لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً» ... (الطلاق : ١)

«إن يتبعون إلى الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى» ... (النجم : ٢٣)

«ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن» ... (المؤمنون : ٧١)

«إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً» ... (المعارج : ١٩)

وغير هذه الإشارات في القرآن كثير ... وهي تجيء – غالباً – تعقيباً على التشريعات والتوجيهات التي يسنها الله للناس ، ويخبرهم معها **أنهم هم لا يستطيعون أن يشرعوا لأنفسهم ؛ وليست لديهم القدرات والاستعدادات الضرورية لوضع منهج لحياتهم هم أنفسهم ، لأنهم يجهلون أنفسهم ، ويجهلون مآلات تصرفاتهم ورغباتهم ، ويخضعون لأهوائهم وشهواتهم .. وكلها مؤثرات تجعل من الخطر على وجودهم ، وعلى خط سيرهم في الحياة ، أن يتولوا هم وضع شريعتهم وتخطيط منهج حياتهم الأصيل .**

فنجد هذه الإشارات في مثل هذه المناسبات .

«ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون» ... (الجاثية : ١٨)

«كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون»..
(البقرة : ٥٦)

«يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن – إلا أن يأتين بفاحشة مبينة – وعاشروهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» ... (النساء : ١٩)

«يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا ان يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه .. لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً» ... (الطلاق : ١)

«يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك . وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك – إن كان له ولد – فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث . فإن كان له إخوة ، فلأمه السدس – من بعد وصية يوصى بها أو دين – آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً .. فريضة من الله .. إن الله كان عليماً حكيماً» ...

(النساء : ١١)

كما نجد التنصيص القاطع والتشديد الحاسم – الذي لا يقبل المحال والجدال – على أنه لا يُسلم المسلم ، ولا يؤمن المؤمن ، حتى يجعل منهج الله للحياة منهجه ، وشريعة الله للحياة شريعته ، ولا يتخذ من عند نفسه لحياته منهجاً ولا شريعة . وإلا ادعى لنفسه – بهذا – حق الألوهية فكفر بألوهية الله ، ورفض إفراد الله بالألوهية . وكفر معه كل من يقره على

ادعاء حق الألوهية لنفسه ، بادعاء حق التشريع من دون الله واتخاذ منهج غير منهج الله للحياة .

وتتوالى النصوص القاطعة المؤكدة لهذه القاعدة الأساسية في الإسلام على هذا النحو :

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت[1] – وقد أمروا أن يكفروا به – ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ؟ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله تواباً رحيماً . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ...
(النساء : ٦٠ : ٦٥)

« إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا – للذين هادوا – والربانيون والأحبار . بما استُحْفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشَوُا الناس واخشون . ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .. وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له .. ومن لم يحكم

---

(١) الطاغوت كل سلطان لا يستند إلى سلطان الله ، وكل وضع لا يجعل شريعة الله أساساً للحياة .

بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .. وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .. فاحكم بينهم بما أنزل الله . ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .. وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ؛ وإن كثيراً من الناس لفاسقون .. أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ » ...
(المائدة : ٤٤ — ٥٠)

وفي هذا القدر كفاية لتقرير نظرية الإسلام في شأن « الإنسان » وتسليطه على عالم المادة ، وتسخيره له ، وإتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له في الخلافة .. وفي الوقت ذاته تقرير عجزه عن معرفة ذاته بمثل هذا الوضوح الذي يعرف به نواميس المادة — وإعفائه — تبعاً لهذا — من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه ؛ وعون الله له بوضع المنهج الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته في الأرض .. ثم .. إلزامه باتباع منهج الله هذا ، وإخراجه من دائرة الإيمان والإسلام ، إذا هو لم يتخذ هذا المنهج ، أو إذا هو اتخذ لنفسه منه جانباً وابتدع هو الجانب الآخر : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » .. وإنذاره بسوء الحال في الدنيا والآخرة إن هو فعل ذلك أو بعضه : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى » ... (طه : ١٢٤)

« فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ... (البقرة : ٢٧٩)..
وغيرها كثير .

ونعود بعد هذا الاستطراد في بيان وجهة النظر الإسلامية في حقيقة ما أعطي الإنسان من الاستعداد لمعرفته وما لم يعط ، ومقتضيات هذا وذاك في حياته .. نعود إلى عناصر المأساة التي تعانيها البشرية اليوم ، باتخاذها حضارة ومناهج حياة ، قائمة على ذلك « الجهل المطبق » بالإنسان — كما يقرر « العالم » الغربي الكبير — فنجد هذا الجهل المطبق بالإنسان — إلى جانب المعرفة الواسعة بالمادة — عنصراً رئيسياً في هذه المأساة .. لا لذاته .. ولكن بسبب عدم الاعتبار به ، ثم المضي معه في إقامة مناهج للحياة البشرية ، في معزل عن هدى الله ، بل في عداء وإصرار على تجنب هدى الله ، وفي نفرة منه كالتي يصورها القرآن الكريم في قوله تعالى : « فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ؟! » ...
(المدثر : ٤٩ — ٥١)

وهذا يقودنا إلى العنصر الثاني من عناصر هذه المأساة كما رتبناها في كلمة الافتتاح . فلنحاول معالجة هذا العنصر الثاني ..

تخبّط واضطراب

هذا «الجهل المطبق» بالإنسان الذي يتحدث عنه الدكتور «ألكسيس كاريل» ، في منتصف القرن العشرين ، لا بد أنه كان أعمق وأشمل فيما قبل هذا القرن ، وقبل أن تبذل تلك الجهود الضخمة في محاولة المعرفة ، وقبل أن يتجه البحث إلى «الإنسان» وإلى علوم الإنسان .

وهذا الجهل المطبق بالإنسان ، الذي ستبقى جوانب منه مهما بذل من الجهد ومهما تعددت حقول البحث ودرجاته ، نظراً للصعوبات الذاتية الكامنة في تعقد موضوع الحياة من جهة ، وفي طبيعة عقولنا من جهة أخرى ..

هذا الجهل كان وما يزال يقتضي أن يظل الإنسان لاصقاً بالله — سبحانه — قريباً منه ، ملتجئاً إليه ، مهتدياً بمنهجه الذي يضعه له عن علم وحكمة . وألا يغتر بفتوحات العقل والعلم في عالم المادة ، ولا بمهارته في الإبداع المادي — مهما بلغت قدرته ، ومهما فهم أنه أتى بالخوارق في هذا المجال — فيدفعه هذا الغرور إلى تطبيق محاولاته في عالم المادة على عالم الحياة . وبخاصة حياة الإنسان . وألا يفتنه هذا الغرور أيضاً ، فيجعله يحاول أن يضع لحياته مناهج مستقلة عن منهج الله . بله أن تكون معادية له ، شاردة عنه .

ولكن الذي وقع في أوربا أولاً ، ثم عمت بلوته الأرض كلها فيما بعد ، كان على الضد من هذا كله ، ومن ثم كان التخبط ، وكانت الشقوة ، وكان خط الدمار الذي تنحدر فيه البشرية إلى الهاوية في هذا الزمان ، وكانت هذه الأزمة الحادة التي يواجهها «وجود» الإنسان .

إن هذا الإخلاص العلمي الذي يدفع رجلاً كالدكتور كاريل في منتصف القرن العشرين أن يقول : «وواقع الأمر أن جهلنا مطبق» .. لم يكن له مجال في الاندفاعة العاتية التي اندفعتها أوربا في الشرود عن كل توجيه ديني . ذلك أن ملابسات نكدة وقعت بين الكنيسة هناك والعلماء ، جعلت الناس يشردون من ظل الكنيسة – ومن كل ظل للدين – شروداً لا عقل فيه ولا وعي ، ولا مجال لتحكيم العقل والوعي ، ولا لسماع أية كلمة مخلصة للتفرقة بين الدين في ذاته والكنيسة أولاً ، ثم بين قدرة الإنسان على العمل في عالم المادة وعجزه عن العمل في منهج حياة الإنسان أخيراً .

وكان لهذا الشرود أسبابه المفهومة في أوربا .. وإليك عنصراً واحداً من عناصره :

كانت مناهج البحث العلمي قد نشأت – في ظل الإسلام – في جامعات الأندلس والشرق كما يقول دوهرنج وبريفولت – وكانت أوربا في القرن الخامس عشر تنهل من هذه الجامعات ، وتعرف لأول مرة في تاريخها شيئاً عن هذه المناهج ، وشيئاً عن المذهب التجريبي (الذي عرف به فيما بعد روجر بيكون وفرنسيس بيكون) والأول يعترف اعترافاً صريحاً بأنه اقتبس من «العالم» الإسلامي .

وفي هذا يقول دوهرنج :

«إن آراء روجر بيكون في العلوم أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور (فرنسيس بيكون)» .. ومن أين استقى روجر بيكون ما حصله في العلوم ؟ من الجامعات الإسلامية في الأندلس . والقسم الخامس من كتابه : (Opus Majus) الذي خصصه للبحث في البصريات ، هو في حقيقة الأمر

نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ، وكتاب بيكون في جملته شاهد ناطق على تأثره بابن حزم .

ويقول بريفولت في كتابه : « بناء الإنسانية » (Making of Humanity) :

« إن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربي ، والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب في الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة الغربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي ، هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية ، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكب الناس ، في لهف ، على تحصيله في ربوع أوربا (ص ٢٠٢)

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث . ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .. إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا ، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية (ص ٢٠٢)

« إنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الاوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون ، في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفي

المصدر القوي لازدهاره . أي في العلوم الطبيعية ، وفي روح البحث العلمي (ص ١٩٠)

«إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة . بل يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني . ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الاسكندرية في عهدها الهليني . أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، بطرق التجربة والمقاييس وتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوربي (ص ١٠٩) » .

* * *

وعندما انتقل المنهج الإسلامي الواقعي التجريبي إلى العقلية الأوربية ، اتجه الفكر الغربي إلى البحوث العلمية التجريبية . وبدأ البحث العلمي يكشف حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية ، غير تلك المجموعة من الأوهام والأساطير والخرافات التي تتبناها الكنيسة وتعتبرها «حقائق مقدسة» وهي ليست من النصرانية في شيء ، إنما هي مجرد أفكار - غير علمية - كانت شائعة في تلك الأزمان - ولم يتنزل بها كتاب من عند الله - فتبنتها الكنيسة ، ودافعت عنها بوصفها جزءاً من «العقيدة» .

ولقد وقفت الكنيسة وقفة عنيدة في وجه هذا الاتجاه الجديد المنبثق من منبع الثقافة الإسلامية في الأندلس وفي الشرق كذلك . وقابلت نتائج بحوث الطليعة من العلماء الأوربيين الذين استقوا من ذلك النبع ، بجفوة وعداء شديدين ، واستخدمت سلطانها ضدهم بوحشية كان من جرائرها ذلك الشرود من الكنيسة ، وضمناً من إلـٰهها الذي تستطيل باسمه زوراً وبهتاناً ، ومن كل ظل للدين وللتوجيه الديني . فقد كان كل اعتراف أو خضوع للدين معناه الاعتراف والخضوع لهذا الطغيان الكنسي الغشوم .

وعندئذ كان ذلك الفصام النكد بين الدين والعلم حتى مطلع القرن العشرين في أوربا ، وظل اندفاع الناس – والعلماء خاصة – في شرودهم الآبق عن الدين كله «كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة» .. ولم يهدأ هذا الشرود – شيئاً ما – إلا في مطلع القرن العشرين . حيث جعل بعضهم يقف ليلتقط أنفاسه اللاهثة ، وهو يحس بالخواء الروحي من آثار الرحلة الجاهدة ، في التيه المقفر ، نحو أربعة قرون ...

* * *

وما بنا – في هذا البحث المجمل – أن نستعرض بالتفصيل كل الملابسات والظروف ، التي أحاطت بهذا الفصام النكد – في أوروبا – بين العلم والدين[١] ، ولا أن نصف بالتفصيل كذلك تلك الرحلة الشاردة الطويلة المجهدة في التيه المقفر ؛ ولا أن نصور بالتفصيل مدى اللأواء والشقوة التي عانتها البشرية كلها ، وهي تشرد من الله ، وتتخلى على كل ظل لمنهجه للحياة . وتعادي هذا المنهج ، وتبتدع لنفسها – بجهلها المطبق – مناهج من عند أنفسها طوال هذه القرون .

---

(١) يراجع بتوسع في هذا الموضوع كتاب «المستقبل لهذا الدين» فصل «الفصام النكد» .

ولكننا سنحاول فقط اختيار بعض النماذج لتخبط البشرية في التيه الطويل .

* * *

إن الثمرة الطبيعية البديهية لجهلنا بحقيقة الإنسان – أو حتى لعدم إدراكنا كل جوانب هذه الحقيقة ، بفرض أننا وصلنا أو قد نصل إلى بعض جوانبها – هي أننا عاجزون عن وضع نظام شامل مضبوط صالح مصلح لحياته . وأن أي نظام نضعه له من عند أنفسنا – بعيداً عن منهج الله – لا بد أن يعرّض الحياة الإنسانية ، ويعرض الإنسان نفسه ، للعطب والدمار ، في صورة من صور العطب والدمار ..

هذه بديهية .. ولكننا نؤثر أن نضعها في صورة عملية حسية واقعية .. لنفرض أننا كنا نجهل قوانين المادة ، جهلنا بقوانين الحياة – والحياة الإنسانية بصفة خاصة – ثم أردنا أن نتعامل – بجهلنا هذا الكلي أو الجزئي – مع المادة ؟ فما الذي كان يقع ؟ النتيجة معروفة .. يقع أن تتلف المادة التي نتعامل معها – كلياً أو جزئياً – إن لم تحطمنا هذه المادة وتدمرنا .. ومثل هذا قد حدث تماماً في الحياة البشرية ..

ولكن التلف والدمار حين يقع في عالم المادة لا ينشئ آثاراً يصعب تداركها ، ولا يحطم أشياء ثمينة غالية مثل « العنصر الإنساني » و « الحياة الإنسانية » . ولا يتخلف منه ما تخلف عن محاولاتنا علاج شؤون الإنسانية في معزل عن خالقها العليم بحقيقتها ، الخبير بالنواميس التي تحكم حياتها ، واتصالاتها بهذا الكون الذي تعيش فيه . ولا مثل ذلك التخبط والشقاء والحيرة والقلق ، والتلف والفساد .. ثم التهديد بالدمار الأخير في نهاية الخط المشؤوم ..

إن هذه الظواهر النكدة تتجلى الآن في كل جوانب الحياة البشرية .

وتبدو معها التضحيات الهائلة ، والمذابح الرهيبة ، والتقلبات العاتية ، والشقوة التي تسحق أثمن عناصر الكون .. «الإنسان» ..

وسنقف وقفات مجملة أمام نماذج بعينها من تجارب البشرية الذاتية -- في معزل عن هدى الله ومنهجه للحياة -- في تاريخ البشرية من القديم إلى الحديث ، تشير إلى سائر النماذج . مذ كان استقصاؤها متعذراً . فضلاً على أن طبيعة هذا البحث المجمل لا تحتمله :

هذه النماذج تتناول المسائل الرئيسية الثلاثة في حياة الإنسان :

١ -- مسألة النظرة إلى الإنسان وحقيقة فطرته واستعداداته .
٢ -- مسألة النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين .
٣ -- مسألة النظم الاقتصادية والاجتماعية .

الإنسان وفطرته واستعداداته

«الإنسان» كائن فذ في هذا الكون . فذ في طبيعته وتركيبه . وفذ في وظيفته وغاية وجوده . وفذ كذلك في مآله ومصيره ..

إنه مخلوق غير مكرر في جميع الخلائق التي عرفناها ، والتي يحدثنا الله عنها كذلك ولا نراها . ومخلوق بقدَر فلم يوجد هكذا مصادفة ولا جزافاً . ومخلوق لغاية فلم يخلق عبثاً ولا سدى .. وهذا واضح فيما نقلناه من الآيات القرآنية في الفصل السابق . وفي نظرة الإسلام إلى الإنسان بجملتها ..

وتميز الإنسان بخصائص لا توجد في عالم الأحياء هو الذي جعل «جوليان هكسلي» في «الدارونية الحديثة» يتراجع عن الكثير من «الدارونية القديمة» ، التي قررها «دارون» . وهو لا يتراجع عنها إلا مضطراً أمام

ضغط الحقائق الواقعية التي تحتم هذا التراجع . إذ يعترف بأن الإنسان « حيوان خاص » وأن له « خصائص » لم تلاحظ في أي حيوان آخر . وأن لهذه الخصائص آثاراً متفردة كذلك :

ولندعه هو يتكلم في فصل من كتابه : « الإنسان في العالم الحديث » بعنوان « تفرد الإنسان » .

« لقد تأرجح رأي الإنسان كالخطار (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين إعجابه الشديد أو القليل بنفسه . تفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جداً وحيناً آخر هوة صغيرة جداً .

« وبظهور نظرية « دارون » بدأ الخطّار (البندول) يتأرجح عكسياً ، واعتبر الإنسان حيواناً مرة أخرى .. ووصل الخطار شيئاً فشيئاً إلى أقصى مدى تأرجحه ، وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض « دارون » . فالإنسان « حيوان » كغيره من الحيوانات . ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية ، والمثل العليا ، لا تستحق تقديراً أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتريا الباشلس ! والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري . ولذلك فكل الكائنات الحية متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية . ومن المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر !

« ولم تصغر الهوة هنا بين الإنسان والحيوان ، نتيجة المبالغة في إعطاء الحيوان صفات الإنسانية ، وإنما نتيجة التقليل من الصفات الإنسانية في الإنسان .. ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد ، سببه في الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي .

« إن الخطار يتأرجح ثانية : وتتسع الهوة بين الإنسان والحيوان مرة

أخرى .. وبعد نظرية «دارون» لم يعد «الإنسان» يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً[١] ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً . وفي حالات كثيرة لا مثيل له . وتحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد .. وما هذا المقال إلا محاولة لعرض مركزه الحالي ..

«وأول خصائص الإنسان الفذة ، وأعظمها وضوحاً ، قدرته على التفكير التصوري[٢] .. ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة . وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة [٣] .. ومن أهم نتائج تزايد التقاليد – أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية – ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات .. وإن العدد والتقاليد هي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية .. وهذه السيادة «البيولوجية» – في الوقت الحاضر – خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة .

«.. وهكذا يضع علم الحياة «الإنسان» في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات .. كما تقول الأديان[٤] ..

---

(١) هذا مجرد رأي لهكسلي بوصفه «دارونيا» وهو طبعاً يعز عليه أن يتراجع عن فروض دارون كلية أمام ضغط الحقائق الجديدة ، ولكنه يتراجع بالفعل وهو يتظاهر بأنه ثابت على أصول النظرية ! والإنسان يحتوي الكيان الحيواني من الناحية العضوية ولكنه ليس حيواناً بالمعنى الذي تقوله الدارونية .

(٢) التخيل .

(٣) الناشئة من رصيد التجارب الإنسانية .

(٤) بعد اعتراف هكسلي هكذا عاد ليسترد موقفه ، فقال : إن النظرية الدينية لم تكن صحيحة في تفصليها أو في كثير مما تضمنته . ثم أرغمته الحقائق مرة أخرى فختم هذا التراجع بقوله : «ولكن كان لها أساس جيولوجي متين» . وهكذا يتأرجح بين ضغط الحقائق وبين مقتضيات الإلحاد والمادية !

«ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى ، ومعظمها واضح معروف .

«والإنسان لا مثيل له أيضاً كنوع مسيطر . إذ انقسمت كل الأنواع الأخرى المسيطرة إلى مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة ؛ وتجمعت في أجناس وفصائل عديدة ، ومجموعات أكبر . أما الإنسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام . ولقد تم تنوع سلالات الإنسان في حدود نوع واحد .

«وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .

«وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره .. ونحن الآن في مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الإنسان في تطوره . وأما خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر فهي «التفكير المعنوي» .

«ولقد كان بحثنا حتى الآن بطريقة عامة في خصائص الإنسان من ناحية التطور والمقارنة . والآن نعود إليها ، ونبحث فيها وفي نتائجها بشيء من الإسهاب .. فأولاً يجب ألا يعزب عن بالنا ، أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما نظن عادة .. وكلنا على علم بقوة الغريزة في الحشرات .. ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة . وليست الثدييات بأفضل من ذلك .. بينما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية كبرى حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطأ . ولا بد أن يكون سلوك الحيوانات عرفياً – أي أنه ثابت في حدود ضيقة – أما الإنسان فقد أصبح في سلوكه حراً نسبياً .. حراً في الأخذ والعطاء على حد سواء .. ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية .. والإنسان أيضاً فريد في بعضها . فقد أدت هذه المرونة مثلاً إلى كون الإنسان هو الكائن الحي الوحيد ، الذي لا بد له أن يتعرض للصراع النفسي ..

ومع ذلك فطبقاً للآراء الحديثة توجد في «الإنسان» أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد ، وهي التي يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع .

«وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان ، والتي يمكن تسميتها «نفسية» أكثر منها «بيولوجية» تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

«الأولى» قدرته على التفكير الخاص والعام .

«الثانية» التوحيد النسبي لعملياته العقلية ، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

«الثالثة» وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والجماعة الدينية ، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

«وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان[1] . وهي بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية . ولنذكر منها العلوم الرياضية البحتة والمواهب الموسيقية ، والتقدير والإبداع الفنيين ، والدين ، والحب المثالي ..

«ولكن لا يكفي هنا أن نحصي بعض أوجه النشاط . ففي الحقيقة أن معظم أوجه النشاط الإنساني وخواصه ، نتائج ثانوية لخواصه الأصلية . وكذلك فهي فذة من الناحية البيولوجية .. وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد ..

«وبذلك يكون الإنسان فريداً في أحواله أكثر مما نظن الآن»[2] .

---

(١) نحن ننقل نصوص هكسلي كما هي – بغض النظر عما نخالفه فيه في نشأة الإنسان ..
(٢) من كتاب «الإنسان في العالم الحديث» ترجمة حسن خطاب .. مقتطفات متفرقة .

كذلك يقول العالم الأمريكي : «أ. كريسي موريسون» في كتابه : «Man does not stand alone» الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكي بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان» :

«إن القائلين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة (الجينات) ..(ص ١٤٥)

«لقد رأينا أن «الجينات» متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهي تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص التي لكل شيء حي . وهي تتحكم تفصيلاً في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات ، تماماً كما تقرر الشكل والقشر والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان» (ص ١٤٧)

... «ويلاحظ أن جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها . حتى إن الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك» .

«والإنسان حيوان من رتبة الطليعة ، وتكوينه يشبه فصائل «السيميا» (الأورانجتان والغوريلا والشمبانزي) ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيمائية (من القرود) أو أن تلك القرود هي ذرية منحطة للإنسان . ولا يمكن أحد أن يزعم أن سمك القد (Cod) قد تطور من سمك الحساس (Hoddock) وإن يكن كلاهما يسكن المياه نفسها ، ويأكل الطعام نفسه ، ولهما عظام تكاد تكون متشابهة ... (ص ١٤٢)

«إن ارتقاء الإنسان الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده

هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي ، ودون قصد ابتداعي .

«وإذا قبلت واقعية القصد ، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً . ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار ، لا فائدة منه . والعلم لا يعلل من يتولى إدارته . وكذلك لا يزعم أنه مادي .

«**لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نور** ، ولا يزال الإنسان في طور طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه بـ «الروح» وهو يرقى في بطء ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته أنها خالدة .

«وإذا صح هذا التعليل – ويبدو أن المنطق الذي يسنده لا يمكن دحضه – فإن هذه الكرة الأرضية الصغيرة التي لنا ، وربما غيرها كذلك ، تكسب أهمية لم يحلم بها أحد من قبل . **فعلى قدر ما نعلم قد تولد عن عالمنا الصغير هذا ، أول جهاز مادي أضيف إليه قبس من نور الله** . وهذا يرفع الإنسان من مرتبة الغريزة الحيوانية إلى درجة القدرة على التفكير ، التي يمكن بها الآن أن يدرك عظمة الكون في اشتباكاته ، ويشعر شعوراً غامضاً بعظمة الله ماثلة في خلقه (ص ۱۸۷ – ۱۸۸)

«إن أية ذرة أو جزئية (Atom, Molecule) لم يكن لها فكر قط ، وأي اتحاد للعناصر لم يتولد عنه رأي أبداً . وأي قانون طبيعي لم يستطع بناء كاتدرائية . ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعاً لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تنتظم شيئاً تطيعه جزئيات المادة بدورها . ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هو هذا الكائن الحي ؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزئيات ؟ أجل . وماذا أيضاً ؟ شيء غير ملموس ، أعلى كثيراً من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شيء . ومختلف جداً عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا

قياسه . وهو – فيما نعلم – ليست له قوانين تحكمه . إن «روح الإنسان هي سيدة مصيره» ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها . وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أي حيوان آخر ، ولا يحتاج إليه . فإذا سمى أحد ذلك الكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة ، لا لشيء سوى أنه لا يعرف كنهه بأنبوبة الاختبار ، فهو إنما يزعم زعماً لا يقوم عليه برهان .. إنه شيء موجود ، يظهر نفسه بأعماله ، وبتضحياته ، وبسيطرته على المادة ، وبالأخص بقدرته على رفع الإنسان المادي من ضعف البشر وخطئهم إلى الإنسجام مع إرادة الله .. هذه هي خلاصة القصد الرباني . وفيها تفسير للاشتياق الكامن في نفس الإنسان ، للاتصال بأشياء أعلى من نفسه . وفيها كشف عن أساس حافزه الديني .. وهذا هو الدين» .. (ص ٢٠١ – ٢٠٢)

وتفرد الإنسان في هذا الكون بطبيعته وتركيبه ، وفي وظيفته وغاية وجوده ، وفي مآله ومصيره ، هو الذي يقرره التصور الإسلامي عن الإنسان في نصوصه الكثيرة ، فكلها تقرر أن هذا الإنسان ، خلق خلقة فذة خاصة مقصودة ، وعينت له وظيفة ، وجعلت لوجوده غاية ، وأنه كذلك مبتلى بالحياة مختبر فيها ، محاسبٌ في النهاية على سلوكه فيها ، هذا السلوك الذي يقرر جزاءه ومصيره ...

نجد هذا في قصة آدم :

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ...الآية»
(البقرة : ٣٠)

«إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» ... (صٓ : ٧١ – ٧٢)

«ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» ... (الإسراء : ٧٠)

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ... (التين : ٤)

ونجده في نصوص شتى :

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» ... (الذاريات : ٥٦)

«الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» ...
(الملك : ٢)

«فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى» ... (طه : ١٢٣ – ١٢٤)

* * *

والإنسان كائن معقد شديد التعقيد . سواء في تركيبه العضوي ، أو تركيبه العقلي والروحي ، كما هو معقد في أوجه نشاطه المختلفة ، التي لا يعرف أحد حتى اليوم طبيعتها ، ولا حقيقة الارتباطات بينها ، إذ كل ما أمكن هو ملاحظة ظواهرها وسطوحها .

وهذا التعقيد لا يبدو في كيان الإنسان ككل فحسب ، بل إنه ليتجلى كذلك في كل خلية حية من خلاياه التي لا تحصى ..

وإلى هذه اللحظة لم يكشف أحد سر تكوين الخلية .. وحتى لو تسنى كشف عناصر تكوينها المادي ، فإن عنصر الحياة الذي فيها مجهول الكنه والكيفية . ويبدو أنه سيظل كذلك . وليست هذه سوى الخطوة الأولى في الطريق الطويل لمعرفة أسرار الخلية الحية .. إن هذه الخلية تتصرف كما لو كانت كائناً عاقلاً رشيداً يدرك تماماً وظيفته المقبلة ، كما يدرك

دوره مع بقية الخلايا ، ويمضي في طريقه مهتدياً لا يضل أبداً ، لأداء دوره هذا ، في دقة وإصابة لا يتمتع بهما العقل البشري ذاته !

وعن هذه الأسرار ، وأسرار الارتباطات بين مركبات الكائن البشري ووظائفه وأوجه نشاطه المختلفة يقول الدكتور «ألكسيس كاريل» ما سبق أن صدرنا به الفصل الأول . وما نعيد هنا فقرات منه لضرورة وضعها تحت العين في هذه اللحظة :

«**وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محددة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة** .. فنحن لا نعرف الآن الإجابة عن أسئلة كثيرة مثل :

«كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

« كيف تقرر الجينس (ناقلات الوراثة) الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

« كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء أنفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدماً الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع . وتساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط معقد في الوقت ذاته .

«ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي ؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور .. ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً .

«إننا ما زلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن فسيولوجية الخلايا

العصبية .. إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟ على أي وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية ، التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية ؟ الخ الخ » .

وهذا التعقيد في تركيب الكائن الإنساني ، وفي وظائفه وأوجه نشاطه ، هو الذي يتسق مع ضخامة وتشعب وظيفته الأساسية في خلافة هذه الأرض ، كما أنه هو الذي يتسق مع طبيعة نشأته التي حدثنا الله عنها :

« إذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ... (ص : ٧١ – ٧٢)

فالكينونة التي تنبثق ابتداء من الطين والنفخة من روح الله – على ما بينهما من آماد وآفاق لا تحد – هي التي يتوقع فيها مثل هذا التعقيد الشديد ، الذي يستعصي على العقل البشري ، لأنه فوقه وأكبر منه . على حين أنه يسيرٌ يسيرٌ على الله سبحانه :

« هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم » ... (النجم : ٣٢)

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » (الملك : ١٤)

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ... (ق : ١٦)

* * *

والإنسان – بعد هذا وذلك – كائن يؤلف كل فرد فيه بذاته عالماً فذاً مفرداً لا مثيل له في سائر أفراده . على كل ما يجمع أفراد الجنس كله من

الخصائص «الإنسانية» المشتركة .. وهذا مما يزيد الأمر تعقيداً ، ويزيد دراسة «الإنسان» صعوبة ، بل تعذراً ، دون المعرفة الكاملة بالسمات المميزة لكل فرد على حدة – في فرديته المتميزة – على فرض أنه أمكن الوصول – في ملايين السنين – إلى معرفة كل التركيب العضوي والنفسي العام للجنس البشري ..

وفي هذه الفردية يقول دكتور كاريل :

«إن الفردية جوهرية في الإنسان . إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم ، إذ انها تنفذ إلى كياننا .. وهي تجعل «اللذات» حدثاً فريداً في تاريخ العالم .. إنها تطبع الجسم والشعور . كما تطبع كل مركب في الكل بطابعها الخاص وإن ظلت غير منظورة» ... (ص ٢٨١)

«يميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم وإشاراتهم وطريقتهم في المشي ، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة . ومع أن الزمن يحدث تغييرات كثيرة في مظهر الأفراد ، إلا أنه يمكن دائماً معرفة كل فرد – كما أثبت برتلون منذ أمد بعيد – بواسطة أبعاد أجزاء معينة من هيكله .. وكذلك فإن خطوط أطراف الأصابع مميزات قاطعة للفرد . ومن ثم فإن بصمات الأصابع هي التوقيع الحقيقي للإنسان» ... (ص : ٢٨٢)

«وعلى كل حال فإن تكوين الجلد جانب واحد فقط من فردية الأنسجة» .

وقد تظهر فردية الأنسجة نفسها بالطريقة التالية :

«طُعم سطح جرح بقطع من الجلد ، أخذ بعضها من المريض نفسه ، والبعض الآخر من صديق أو قريب . فلوحظ بعد أيام قليلة أن الجلد الذي أخذ من المريض نفسه قد تماسك مع الجرح ، وبدأ ينمو ، في حين أن الجلد

الذي أخذ من الأشخاص الآخرين أخذ في التراخي والانكماش . وسرعان ما عاش الأول ومات الثاني » ... (ص : ٢٨٣)

« إن القاعدة أن أنسجة أي شخص ترفض قبول أنسجة شخص آخر .. وحينما تخيط الأوعية ، ويمر الدم ثانية في كلية مطعمة ، فإن هذا العضو يفرز البول مباشرة ، ويكون تصرفه طبيعياً في بادئ الأمر . إلا أنه لا تكاد تمضي أسابيع قليلة حتى يظهر الزلال أولاً ، ثم الدم في البول ، وسرعان ما تصاب الكلية بمرض أشبه بالالتهاب يؤدي إلى ضمور الكلية سريعاً .. ومع ذلك لو أن العضو المطعم أخذ من الحيوان نفسه لعاد إلى تأدية وظيفته بصفة دائمة . إذ من الواضح أن الأخلاط تكتشف في الأنسجة الغريبة ، اختلافات تركيبية معينة ، لا يمكن اكتشافها بأي اختبار آخر . إن الخلايا محددة بالنسبة للأشخاص الذين تتبعهم . ولقد حالت هذه الخاصية حتى الآن دون التوسع في استعمال تطعيم أو ترقيع الأعضاء لأغراض علاجية » ...

(ص ٢٨٣)

« فمن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين الملايين من البشر الذين استوطنوا هذه الأرض ، كان تركيبهما الكيماوي متماثلاً . وترتبط شخصية الأنسجة التي تدخل في تركيب الخلايا والأخلاط بطريقة ما زالت غير معروفة حتى الآن . **ومن ثم فإن فرديتنا تتأصل جذورها في أعماق ذاتنا .**

« وتطبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة . فهي موجودة في العمليات الفسيولوجية . كما هي موجودة في التركيب الكيماوي للأخلاط والخلايا . ولهذا فإن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحداث العالم الخارجي .. مع الضوضاء والخطر والطعام والبرد ، وهجمات الميكروبات والفيروسات » ... (ص ٢٨٦)

« تمتزج الفرديات العقلية والتركيبية والأخلاطية بطريقة غير معروفة . وتحمل كل منها للأخرى العلاقات نفسها التي تحملها وجوه النشاط الفسيولوجي ، والعمليات المخية والوظائف العضوية .. إنها تهبنا وحدانيتنا . وتجعل كل إنسان أن يكون نفسه ، وليس شخصاً آخر » .. (ص ٢٨٧)

« كل فرد يدرك أنه فريد . وهذه الوحدانية حقيقية » ..(ص ٢٨٩)

« إن فحص الفردية الفسيولوجية فحصاً كاملاً ، وقياس أجزائها المركبة غير ميسور حتى الآن ، كما أننا لا نستطيع تحديد طبيعتها بالدقة ، وكيف يختلف كل فرد عن الآخر . بل إننا عاجزون عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه ، فضلاً عن أننا أكثر عجزاً عن اكتشاف امكانياته » ... (ص ٢٩٠)

« وحقيقة الأمر أن السيكولوجيا لم تصبح بعد علماً . لأن الفردية وإمكانياتها ليست قابلة للقياس حتى الآن » ... (ص ٢٩١)

* * *

هذه الحقائق الأساسية الثلاثة : حقيقة أن الإنسان كائن فذ في هذا الكون . وحقيقة أن الإنسان كائن معقد شديد التعقيد . وحقيقة أن الإنسان يشتمل على عوالم متفردة عددها عدد أفراده .

هذه الحقائق تقتضي منهجاً للحياة الإنسانية يرعى تلك الاعتبارات كلها . ويرعى تفرد « الإنسان » في طبيعته وتركيبه . وتفرده في وظيفة وغاية وجوده ، وتفرده في مآله ومصيره . كما يرعى تعقده الشديد وتنوع أوجه نشاطه وتعقد الارتباطات بينها . ثم يرعى « فرديته » هذه مع حياته « الجماعية » .

وبعد هذا كله يضمن له أن يزاول وجوه نشاطه كلها ، وفق طاقاته كلها . بحيث لا يسحق ولا يكبت ، كما لا يسرف ولا يفرط . وبحيث

لا يدع طاقة تطغى على طاقة ، ولا وظيفة تغطي على وظيفة .. ثم – في النهاية – يسمح لكل فرد بمزاولة فرديته الأصلية مع كونه عضواً في جماعة ..

ولكن – نظراً لجهالتنا بالإنسان – فإن مناهج الحياة التي اتخذها البشر لأنفسهم لم تستطع – وهذا طبيعي – مراعاة هذه الاعتبارات المتشعبة المتشابكة المتفاوتة المتناسقة ..

والمنهج الوحيد الذي راعى هذه الاعتبارات كلها كان هو المنهج الذي وضعه للإنسان خالقه ، العليم بتكوينه وفطرته ، الخبير بطاقاته ووظائفه ، القادر على أن يضع له المنهج الذي يحقق غاية وجوده ويحقق التوازن في أوجه نشاطه ، ويحقق فرديته وجماعيته كذلك ..

وما من شك أن الأمر من الدقة والخطورة والتشابك والتعقد بحيث يحتاج إلى علم إلٰه ، وحكمة إلٰه ، وعدل إلٰه ، وأنه – من ثم – لا يصنعه إلا الله[1] ..

فلننظر الآن نظرة سريعة إلى تقلب نظرة الإنسان لنفسه ، وتخبطه كذلك بنفسه ؛ حين استقل بأمر نفسه بعيداً عن هدى الله ، واتبع هواه ..

* * *

في الأساطير الإغريقية كان «الإنسان» نداً للآلهة . ينازعها السلطة والمعرفة ، وإن كانت هي تبطش به وتقسو عليه . ولكنه هو لا يستسلم ولا يذعن . وحتى في حالة انتصارها عليه ، فإنه يستبقي في نفسه السخط والإنكار والإصرار !

---

(١) عالجت هذا الموضوع بتوسع في فصل «حقيقة الإنسان» في كتاب : «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» وفصل «نظام إنساني» في كتاب «نحو مجتمع إسلامي» .

فلما جاء العهد الروماني – ونبدأ به باعتباره الأساس الحقيقي للحضارة الأوربية القائمة – بهت ظل الآلهة ، وبقي الإنسان يعبد ذاته وشهواته . وهو على كل حال لم يكن يسمح للآلهة بالتدخل في تصريف حياته الأرضية . وإن كان يسمح لها بالتكهن على ألسنة الكهان ؛ ويستبقيها كعرف اجتماعي لا ضرر منه ، ويستمتع بمباهج الاحتفالات بمواسمها في طلاقة من كل قيد . على طريقة الرومان في المتاع .

ولما سيطرت النصرانية – كما تصورتها الكنيسة – على الدولة الرومانية ، وُسم الإنسان بالخطيئة ، ونكس رأسه بالذل . وبدا ذلك في التماثيل التي أنشئت في ظل هذه النظرة إلى الإنسان ، كما بدا في سواها من وسائل التعبير .

ومع أن النظرة النصرانية إلى الإنسان تحمل تكريم الله لهذا الجنس ، إلا أن خطيئة آدم – كما تصورها الكنيسة – قد دمغت الجنس كله بالإثم . حتى جاء المخلّص «ابن الإنسان» «المسيح» «الرب» «الابن» ... إلى آخره ... فكفّر عن هذه الخطيئة . ولكن هذا لم يرفع جبين الإنسان ، فقد كان عليه أن يكفّر بالذل والهوان والتقشف والعذاب طول حياته ، لكي يلحق بالمخلّص ، ويتحد فيه ، وينال الغفران .

وكذلك اعتبرت ميوله الفطرية رجساً ودنساً ، وعلاقاته الجنسية قذراً ووسخاً ، وشعوره بذاته إثماً وخطيئة .. وكان من وراء هذه النظرة ما سنفصله بعد قليل من الرهبنة ، ورد الفعل للرهبنة في أوروبا التي لم تستقر على حال .

ولما وقع رد الفعل ، وثارت أوربا على الكنيسة ، وعلى التصورات الكنسية ، وعلى المفهومات الدينية كلها بالإجمال ، جدّت مع الثورة نظرة جديدة للإنسان . وبالذات إلى «العقل» في الإنسان .

« لقد جعل هذا « العقل » إلـٰهاً في « عصر التنوير » في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ، فهذا العالم الخارجي إنما هو من خلق العقل وصنعه . وللعقل حق السيطرة على كل جوانب الحياة ، والقطع فيها برأيه الذي يراه . والإنسان – من ثم – حر في العمل حرية تامة ، لا يشوبها تحديد من غير الإنسان نفسه .. وبهذا انتهى عصر تدخل الدين في الحياة .

ثم انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر . وابتدأ القرن التاسع عشر بضربة قاصمة لهذا العقل وللإنسان معه . إذ جاءت « الفلسفة الوضعية » تعلن أن المادة هي الإلـٰه ! فهي التي تنشئ هذا العقل ، وهي التي تطبع في حس الإنسان ما تراه !

بذلك تضاءل العقل ، وتضاءل معه « الإنسان » . لم يعد هذا الإنسان إلـٰه نفسه ، ولا إلـٰه شيء من الأشياء ، إنما أصبح من مخاليق « الطبيعة » ومن عبيد هذا « الإلـٰه » !

ثم جاء « دارون » بحيوانية الإنسان . حيث نشر كتابه : « أصل الأنواع » في سنة ١٨٥٩ ، وكتابه « أصل الإنسان » في سنة ١٨٧١ .

وفقد الإنسان كل ما كان التصور الديني قد أسبغه عليه من تكريم وتفرد وخصوصية . كما فقد كل ما كانت الفلسفة قد خلعته عليه في عصر التنوير من إيجابية واستقلال وسيطرة . وعاد حيواناً – ككل حيوان آخر – ولو أن له السيطرة اليوم ، فإن هذه السيطرة قد تؤول إلى قط أو فأر في يوم من الأيام . كما يحكي جوليان هكسلي !

ثم تمت الضربة القاضية على يد « فرويد » من جانب ، و « كارل ماركس » من الجانب الآخر .. الأول يرد دوافع الإنسان كلها إلى الميول الجنسية ، ويصوره غارقاً في وحل الجنس إلى الأذقان .. والثاني يرد تطورات

التاريخ كلها إلى الاقتصاد ، ويصور الإنسان مخلوقاً ضئيلاً سلبياً ، لا حول له ولا قوة أمام إلـه الاقتصاد . بل إلـه أداة الإنتاج !

* * *

هذه النظرة إلى الإنسان ، التي لم تستقر قط ، ولم يعتدل بها الميزان في أوربا في يوم من الأيام ، كان لها أثرها في التخبط والاضطراب في الأنظمة والأوضاع ، وفي السلوك الفردي والسلوك العام . إذ أنه لا يمكن الفصل بين تصور الإنسان لنفسه ، وسلوكه الواقعي في الحياة .

وكذلك جاء التخبط في النظرة إلى سلوك الإنسان تجاه ميوله الفطرية ، واستعداداته وطاقاته ، وتجاه الأخلاق المرضية من المجتمع ، والتي تطبع سلوك الأفراد في شتى المجتمعات .

لقد ظلت أوروبا تتراوح بين الإفراط والتفريط . بين الكبت والتهور . بين سحق الميول الفطرية والطاقات الطبيعية في الإنسان أو إطلاقها بغير عنان .. ولم تلتزم جادة الاعتدال أبداً في تاريخها الطويل . ولم يقع التوازن في تصوراتها ولا في حياتها تبعاً لذلك في وقت من الأوقات ..

ونبدأ بملاحظة واقع أوروبا – في هذا الجانب ـ منذ أيام الدولة الرومانية ..

يصور «درابر» الأمريكي في كتابه «الدين والعلم» حالة الدولة الرومانية قبيل دخولها في النصرانية هذه الصورة البارعة :

«ولما بلغت الدولة الرومانية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات . بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتاراً . وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن

لهو إلى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان ، إلا ليبعث على شهوة الطعام . ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة . كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان كاسيات عاريات ، غير متعففات ، تدل دلالاً .. ويزهو في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه . وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو القوة . لأنه بها يقدر الإنسان على أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين . وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الإقطاع . وأن رأس الدولة الرومانية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام رومة المدني يشف عن أبهة الملك . ولكنه كان طلاء خداعاً ، كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها »[1] .

ويصف الأستاذ أبو الأعلى المودودي حالة المجتمع الروماني في هذه الفترة يقول :

«ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا الحد ، اندفع تيار من العري والفواحش وجموح الشهوات . فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعري المشين . وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء .

---

(١) نقلا عن كتاب : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للسيد أبي الحسن الحسني الندوي ص ١٣٩ ، ١٤٠ من الطبعة الثانية .

ومن جراء ذلك راجت مهنة المومسات والداعرات . وانجذبت إليها نساء البيوتات . وتمادى الأمر في ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص في عهد القيصر «تاني بيرس» (١٤ – ٣٧م) لمنع نساء البيوتات من احتراف مهنة المومسات وصناعتهن النافقة . ونالت مسرحية «فلورا Flora» حظوة عظيمة لدى الروم ، لكونها تحتوي على سباق النساء العاريات . وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء في مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد .. أما سرد المقالات الخليعة ، والقصص الماجنة العارية فكان شغلاً مرضياً مقبولاً لا يتحرج منه أحد ، بل الأدب الذي كان يتلقاه الناس بالقبول والرضى هو الذي يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف . وهو الذي يتبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة ، غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات»[1] .

* * *

ثم حدث أن استطاعت النصرانية – كما شكلها بولس – أن تمسك بزمام الدولة الرومانية ، وأن تولي الإمبراطور قسطنطين في سنة ٣٠٥ ميلادية ، وأن تصبح لها الكلمة العليا في الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف .. فما الذي حدث ؟

حدث ما يصوره درابر بقوله :

«دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية في الدولة الرومانية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام . وكذلك

---

(١) كتاب «الحجاب» للسيد «أبو الأعلى المودودي» الترجمة العربية للأستاذ محمد كاظم السباق ص ٢٣ ، ٢٤ .

كان قسطنطين . فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (٣٣٧م) .

«إن الجماعة النصرانية .. وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولّت قسطنطين الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها . وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء .. هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى الإسلام على منافسه (الوثنية) قضاءً باتاً ونشر عقائده بغير غبش .

«وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا ، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي عنده شيئاً ، رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين – النصراني والوثني – أن يوحدهما ، ويؤلف بينهما حتى إن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة . وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها»[1] .

ولم تستطع هذه النصرانية الملقحة بالوثنية أن تنتزع الرومان من الحياة البهيمية الداعرة التي كانوا يزاولونها في وثنيتهم .. عندئذ عمدت إلى الطرف المقابل .. الرهبانية .. الرهبانية التي تكبت الميول الفطرية والطاقات الطبيعية ، والوظيفة الأساسية للإنسان في الأرض .. التعمير والخلافة .. ثم لا تفلح طبعاً في قتل هذه القوى الضخمة العميقة الجذور في الكينونة البشرية . ولكنها تفلح فقط في إحالة الحياة إلى شد وجذب بين الدوافع والكوابح ،

---

(١) عن كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وإلى صراع أليم في داخل الكيان البشري ، وإلى دمار رهيب في الحياة الاجتماعية والعمرانية ..

ويصف ليكي في كتابه «تاريخ أخلاق أوربا» ما وصلت إليه الرهبانية يقول :

«زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم ، واستفحل أمرهم ، واسترعوا الأنظار ، وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم ، وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان ، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب ، وكان الراهب «سرابين» يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر» ..

وأفاض «ليكي» وغيره في وصف حالة الرهبان ؛ وبشاعة بعدها عن الفطرة الإنسانية ، والإيجابية الإنسانية ؛ والغلو في الهرب من طيبات الحياة ؛ ومكافحة نشاط الفطرة ، مما نكتفي فيه بتلخيص جيد واف للأستاذ أبي الحسن الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» تحت عنوان «عجائب الرهبان» جاء فيه :

«ظل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والأخلاق إلى قرنين ، وروى المؤرخون من ذلك عجائب . فحدثوا عن الراهب ماكاريوس (Macarius) أنه نام ستة أشهر في مستنقع ، ليقرص جسمه العاري ذباب سام ، وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد . وكان صاحبه الراهب «يوسيبيس» (Eusebius) يحمل نحو قنطارين من الحديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح . وقد عبد الراهب يوحنا (St. John) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ، ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة ، فإذا تعب جداً أسند

ظهره إلى الصخرة . وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً ، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة ، والمقابر ، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش . وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ، ويتأثمون من غسيل الأعضاء . وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة ، وأوغلهم في النجاسات والدنس ، ويقول الراهب (اتهينس) : إن الراهب (أنتوني) لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره . وكان الراهب (أبراهام) لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة . وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلهفاً : واأسفاه لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً ، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات . وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ، ويهربون إلى الصحراء والأديار ، وينتزعون الصبية من حجور امهاتهم ، ويربونهم تربية رهبانية ، والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً ، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ، ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم . وعرف كبار من الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب ، حتى روي أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت ، إذا رأين الراهب أمبروز (Ambrose) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً ، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس .

«وكان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال القوة والمروءة التي كانت تعد فضائل ، عادت فاستحالت عيوباً ورذائل . وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح ، والصراحة ، والسماحة ، والشجاعة والجراءة ، وهجروها . وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية ، وعم الكنود والقسوة على الأقارب . فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حناناً ورحمة ، وعيونهم من الدمع ، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد .

فيخلفون الأمهات ثكالى ، والأزواج أيامى ، والأولاد يتامى ، عالة يتكففون الناس ، ويتوجهون قاصدين الصحراء ، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة ، لا يبالون ماتوا أو عاشوا . وحكى (ليكي) من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب .

«وكانوا يفرون من ظل النساء ، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن – ولو كنا أمهات أو أزواجاً أو شقيقات – تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية . وروى (ليكي) من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً»[1] .

فماذا كانت ثمرة هذا الغلو في مجافاة الفطرة ، ومحاولة سحق الميول والاستعدادات الفطرية العميقة في الكينونة الإنسانية ؟

إنها لم تكن انتصاراً لهذا الانحراف العاتي ، فهذا مستحيل والفطرة أغلب . ولم تكن اعتدالاً وتوازناً في جموح المادية الشهوانية الرومانية . وإنما كانت خليطاً من هذا وذلك . يفسد الحياة كلها إفساداً .

كانت هذه الصورة التي يرسمها (ليكي) في كتاب : «تاريخ الأخلاق في أوربا» .

«إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس واجتماعهم ، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف ، والتساقط على الشهوات ، والتملق في مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء ، والمسابقة في زخارف اللباس والحلي والزينة .. في حدتها وشدتها .. كانت الدنيا في ذلك الحين

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٤٢ – ١٤٣ .

تتأرجح بين الرهبانية القصوى ، والفجور الأقصى . وإن المدن التي ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأي الجمهور حتى أصبح الناس لا يحتفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس . وكان الضمير الإنساني ربما يخاف الدين ووعيده ، ولكنه أمن واطمأن لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان .. لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب ، حتى فاق هذا العصر في ذلك ، عصر القياصرة . ولكن الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة كانت تؤدي إلى انحطاط في حرية الفكر والحماسة القومية » .

* * *

ثم كانت الطامة الكبرى ، يوم وقفت الكنيسة بما تبنته من آراء « علمية » خاطئة وخرافات وأساطير شائعة ، واعتبرته جزءاً من الدين والعقيدة .. يوم وقفت بهذا الغثاء في وجه المنهج العلمي التجريبي الذي تسرب من الجامعات الإسلامية إلى التلامذة الأوربيين ، في وجه النتائج « العلمية » الحقيقية التي أخذ هذا المنهج والتلامذة الأوربيون العلماء يصلون إليها .. وحرقت العلماء ، وطاردتهم وأنكرت مناهجهم ونتائج تجاربهم جميعاً .

كانت هذه هي الطامة الكبرى . إذ جمح العلماء – ثم الجماهير – جموحاً مضاداً لجموح الكنيسة ، لا يقف عند حد الاعتدال أبداً ...

وتلا ذلك النظريات والمذاهب التي أشرنا إليها ، جامحة في تلويث الإنسان وتحقيره ، ومن ثم إباحة كل خساسات الشهوات الجامحة له ، بدون حدود ولا قيود .

وظلت الموجة العاتية في مدها حتى اللحظة الحاضرة . وانساحت من

أوروبا إلى وليدتها أمريكا ، ثم انساحت منها إلى جنبات الأرض ، وما تزال ماضية في طريقها . عاصفة مدمرة . تنفخ فيها أبواق الصحافة والسينما والمسرح والأدب والتصوير والنحت ... وسائر الفنون ، وسائر أجهزة الإعلام والتوجيه .. ومن ورائها جميعاً «بروتوكلات صهيون» التي تنص على أن هذا كله هدف أصيل للصهيونية العالمية ، لتدمير العالم — غير اليهودي — وإصابته بالانحلال ؛ ليسهل بذلك إخضاعه لحكم صهيون !

وما تزال البشرية تهوي إلى هاوية الدمار الأكيد . وعجلة الحياة جامحة مجنونة . تلهبها سياط الأجهزة المتعددة . حتى يأذن الله ، فتتسلم القيادة يد غير تلك اليد الرعناء المجنونة الشاردة المحمومة .

المرأة وعلاقات الجنسين

إن التخبط في النظر إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين ، والأرجحة العنيفة بين الغلو والتفريط والتقلب من طرف إلى طرف ، والشد والجذب الذي لا يستقر على طريق وسط ، ولا يتسق مع فطرة ولا خلق .. إن هذا كله لا يقل عن نظيره في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته .

ولا يقل أثر الاضطراب والتخبط في النظرة إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين في حياة المجتمع الإنساني ، عن أثر التخبط والاضطراب في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته ، فكلاهما ينبع من معين واحد : هو الجهل بحقيقة هذا الكائن بنوعيه ، ومن الهوى كذلك والضعف ؛ ثم الانقطاع — مع هذا الجهل والهوى والضعف — عن منهج الله وهداه .

ولإدراك أهمية هذه المسألة — مسألة التخبط في النظر إلى المرأة وإلى علاقات الجنسين — لا بد لنا هنا من استصحاب جميع المقدمات التي صدرنا بها الحديث عن «الإنسان وفطرته واستعداداته» .. فهي بنصها

هناك تنطبق على الموضوع هنا . فلا بد أن نكون على ذكر منها ، وأن نعيد مراجعتها في الصفحات السابقة ، قبل المضي في موضوع المرأة[1] .

ثم نضيف إلى تلك المقدمات أن الحياة البشرية يستحيل أن تستقيم وتعتدل وتطمئن ، إذا كانت علاقة الجنسين غير مستقرة ، وإذا كانت تتأرجح – تبعاً للنظرة إلى المرأة – من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ؛ أو إذا كانت تستند إلى الجهل والضعف والهوى .

إن هذه العلاقة هي التي يقوم عليها بناء العمران – هي وقاعدة النظام الاقتصادي وتوزيع الثروات – كما يقوم عليها بناء الأخلاق الإنسانية في مجالات واسعة متشابكة .. والنظرة إلى هذه العلاقة ، وإلى العلاقات الاقتصادية كذلك ، فرع عن النظرة إلى «الإنسان» التي أفضنا فيها بما تسمح به حدود هذا البحث المجمل في الصفحات السابقة .. ولكنها تحتاج إلى مزيد من الإيضاح خاص بها لضخامة أهميتها .

لقد عني الإسلام – منهج الله للحياة الإنسانية – بتصحيح النظرة إلى المرأة ، وبإقامة العلاقة بين الجنسين على أساس من حقائق الفطرة ، وبتوضيح هذه العلاقة في كل فرع من فروعها النفسية والعملية ، بحيث لا تضطرب ولا تتأرجح ، ولا يكتنفها الغموض في زاوية من زواياها ..

عني – أولاً – ببيان وحدة الزوجين وتساويهما (من الناحية الإنسانية) ليقضي على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم أن المرأة جنس منحط بذاته عن جنس الرجل ..

«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق

---

(١) من ص ٣٧ إلى ص ٥٠ .

منها زوجها ، وبث منها رجالاً كثيراً ونساء ... » (النساء : ١)

وعني – ثانياً – ببيان وحدة الزوجين وتساويهما (من ناحية علاقتهما بربهما وجزائهما عنده) :

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض .. » (آل عمران : ١٩٥)

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما » ... (الأحزاب : ٣٥)

وعني – ثالثاً – ببيان نوع الصلة بين شِقّي النفس الواحدة ، وأهداف هذه الصلة المتنوعة ، سواء ما يختص منها بالزوجين ، وما يختص منها بالمجتمع الإنساني كله ..

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ... (الروم : ٢١)

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ... (البقرة : ١٨٧)

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ... (البقرة : ٢٢٣)

وعني – رابعاً – بتنظيم الصلة بين الجنسين في كل أحوالها وأطوارها ، وما يشتركان فيه ، وما ينفرد به كل منهما – وفقاً لتكوينه الفطري ووظيفته في المجتمع الإنساني القائم عليهما كليهما ...

«أ» فبيَّن حقهما معاً — في أصل الملكية والكسب والميراث — مع خصوصية كل منهما في بعض الفروع . وذلك للقضاء على جميع النظريات والأنظمة الخاطئة التي كانت تحرم المرأة حقها هذا :

«للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن» ...
(النساء : ٣٢)

«للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر ، نصيباً مفروضاً» ...
(النساء : ٧)

«يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» ..
(النساء : ١١)

«ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك — إن كان له ولد — فإن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس» ..
(النساء : ١١)

«وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس» ... (النساء : ١٢)

«وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً» ... (النساء : ٤)

«ب» وبيَّن نظام قيام الأسرة ، ونظام التعامل بينهما في الأسرة ، وحقوق كل منهما على الآخر ، وحقوق الأطفال الناشئين ثمرة التقائهما كذلك .

فالعلاقة تبدأ زواجاً بمهر .

«وأحل لكم – ما وراء ذلكم[1] – أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة . ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليماً حكيماً» ...
(النساء : ٢٢)

والمرأة لا تورث كالمتاع ولا تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها لتفتدي نفسها من أهل الزوج – ولا تمسك بعد الطلاق ضراراً حتى تفتدي نفسها من الزوج – كما كان الحال في الجاهلية :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن – إلا أن يأتين بفاحشة مبينة – وعاشروهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ؟! » ... (النساء : ١٩ – ٢٠)

وللرجل القوامة في البيت وعليه الإنفاق . وله مزاولة حقوق القوامة في المحافظة على كيان الأسرة من التفكك في مهب النزوات العارضة ، والمحافظة على العش الذي تتعلق به حقوق الأطفال ، وحقوق المجتمع البشري الذي يعتمد على مؤسسات الأسرة في نموه الاجتماعي ورقيه ..

« الرجال قوّامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتي تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً . إن الله كان علياً كبيرا» ...
(النساء : ٣٤)

---

(١) أي فيما عدا المحرمات المذكورات في آيات سابقة .

فأما حين يخشى على مؤسسة الأسرة التصدع والانهيار فهناك إجراءات أخرى :

«وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها . إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليماً خبيراً» ...
(النساء : ٣٥)

وحين لا تجدي هذه المحاولة فهناك الطلاق إذن ليبحث كل منهما عن شريك يقيم معه مؤسسة الأسرة على أساس أقوى :

«وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته ، وكان الله واسعاً حكيما» ...
(النساء : ١٣٠)

والطلاق شروطه وعدد مراته ونظام المراجعة فيه ونظام النفقة .. كل شيء مبين بوضوح . وليس هنا مكان تفصيله .

وللأطفال حقوقهم عند تفرق الوالدين :

«والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين – لمن أراد أن يتم الرضاعة – وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . لا تكلَّف نفس إلا وسعها . لا تضارّ والدة بولدها ، ولا مولود له بولده . وعلى الوارث مثل ذلك . فإن أرادا فصالاً[1] عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما . وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم – إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف – واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير ...» (البقرة : ٢٣٣)

* * *

ولا نستطيع أن نمضي أكثر من هذا في تفصيل النظرة إلى المرأة وإلى

---

(١) فصالاً : فطاماً للطفل .

علاقات الجنسين في المنهج الإلـهي . فقد أفردنا له فصلاً كبيراً في كتاب « نحو مجتمع إسلامي » . فحسبنا أن نشير إلى أن هذا الأمر مبين بوضوح ودقة وتوكيد – في كل جزئية من جزئياته – وأنه كله مبني على حقائق الفطرة في تكوين الجنس الإنساني أولاً ، وفي تكوين كل من زوجيه ثانياً . وأن توزيع الاختصاصات بينهما مراعى فيه دقائق الفطرة ، التي يعلم بها بارئها ، ولا يعلم الإنسان عنها إلا قليلاً . فجهالتنا بها مطبقة كجهالتنا بالإنسان كله !

ولكن الذي ينبغي توكيده – في اختصار – هو أن طبيعة نظرة الإسلام إلى الإنسان لا تسمح بأن تكون العلاقة بين الجنسين هي مجرد العلاقة الحيوانية القائمة بين أزواج الحيوان . فالإنسان مخلوق فذ في تكوينه . فذ في غاية وجوده . فذ في مآله ومصيره .. وهذه الخصوصية من شأنها أن تجعل لعلاقات الجنسين فيه غاية أبعد وأشمل وأكبر من غاية الالتقاء الحيواني واللذة الحيوانية . غاية تتفق مع غاية وجوده كما تتفق مع طبيعة تكوينه ، التي ألمحنا إليها في الصفحات السابقة باختصار[1] .

وليس تفصيل المنهج الإلـهي لعلاقة الجنسين موضوعنا هنا . إنما موضوعنا هو ذلك التخبط الذي عانت منه البشرية في أطوارها المختلفة ، وهي تشرد عن الله ، وتتخذ لنفسها مناهج تقوم على الجهل والهوى والضعف والشهوة في أطوارها المتلاحقة ؛ ولا تستقر على وضع معتدل هادئ مطمئن في طور من الأطوار .

ونجتزئ بالتخبطات التي تداولت المجتمع الأوربي منذ عهد الإمبراطورية

---

(١) يراجع هذا الموضوع بتوسع كاف في كتاب « الحجاب » للسيد أبي الأعلى المودودي . وكذلك في كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .

الرومانية – التي على أساس حضارتها تقوم الحياة الأوربية المعاصرة – كما فعلنا في الكلام عن النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته .

* * *

لقد تأرجحت النظرة إلى المرأة بين اعتبارها كائناً منحطاً أشبه بالأشياء منه بالأحياء ! إلى اعتبارها شيطاناً رجيماً يوسوس بالشر والخطيئة ! إلى اعتبارها سيدة المجتمع والحاكمة في أقداره وأقدار حاكميه ! إلى اعتبارها عاملة عليها أن تكافح وتشقى لتعيش .. ثم تحمل وتضع وتربي !

كما تأرجحت العلاقة بين الجنسين بين اعتبارها علاقة حيوان بحيوان . إلى اعتبارها دنساً ورجساً من عمل الشيطان . إلى اعتبارها مرة أخرى علاقة حيوان بحيوان !

أما أن المرأة شطر النفس الإنسانية ، وأنها صانعة الجنس البشري ، وأنها حارسة العش الذي تدرج فيه الطفولة .. وأنها الأمينة على أنفس عناصر هذا الوجود .. «الإنسان» .. وأن عملها في إتقان هذا العنصر لا يعدله عملها في إتقان أي عنصر آخر أو أي جهاز ... إلى آخر هذه الاعتبارات الفطرية الإنسانية الكريمة .. فهذا ما لم يعتدل به الميزان قط ، في تلك المناهج الجاهلية .

وأما أن العلاقة بين الجنسين أداة لخدمة النوع البشري ، بإنشاء المحضن الآمن النظيف الواعي المتخصص ، لإنتاج صناعة البشر – وهي أثمن وأغلى صناعة في هذه الأرض – واعتبار «الواجب» – لا اللذة – هو عماد هذه العلاقة ، لتعلق المستقبل البشري كله بها ، وقيام التمدن البشري عليها ... أما هذا الاعتبار فلم يعتدل به الميزان كذلك قط في مناهج الجاهلية القديمة أو الحديثة .

وقد مضت الجاهلية الإغريقية القديمة على ذلك النمط ، ولا مجال للحديث عنها هنا خوف الإطالة .

«والذين تسنموا ذروة المجد والرقي في العالم – بعد اليونانيين – هم الرومان . وفي هذه الأمة أيضاً نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط . التي قد شاهدناها في اليونان . فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلم الجهل ، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة ، كان الرجل رب الأسرة في مجتمعهم ، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده . بل بلغ من سلطته في هذا الشأن ، أن كان يجوز له حتى قتل زوجه في بعض الأحيان[1] .

«ولما تحققت فيهم سورة الوحشية ، وتقدموا خطوات في سبيل المدنية والحضارة ، تخففت القسوة في تلك السلطة ، وجعلت الكفة تميل إلى الاستواء والاعتدال شيئاً فشيئاً وإن بقي نظام الأسرة القديم ثابتاً على حاله .

«ثم أخذت نظرية الرومان في النساء تتبدل (بعد فترة من شبه الاعتدال والتوازن) برقيهم وتقلبهم في منازل المدنية والحضارة . وما زال هذا التبديل يطرأ على أنظمتهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة ، وعقد الزواج والطلاق ، إلى أن انقلب الأمر ظهراً لبطن ، وانعكست الحال رأساً على عقب ، فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدني (Civil Contract) فحسب ، ينحصر بقاؤه ومضيه على رضى المتعاقدين . وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلاً . ومنحت المرأة جميع حقوق الإرث والملك ، وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطان عليها للأب ولا للزوج . ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشؤون معايشهن فحسب ، بل دخل في حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومي على مسير الأيام . فكن يقرضن

(١) وبيع أولاده كذلك ...

أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة ، مما يعود به أزواج المثريات من النساء عبيداً لهن في ميادين العمل والواقع ! ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلاً جعله شيئاً عادياً يلجأ إليه لأتفه الأسباب .. فهذا « سنيكا » الفيلسوف الروماني الشهير (٤ ق.م – ٥٦م) يندب كثرة الطلاق ، ويشكو تفاقم خطبه بين بني جلدته فيقول : « إنه لم يعد الطلاق اليوم شيئاً يندم عليه أو يستحيى منه في بلاد الرومان . وقد بلغ من كثرته وذيوع أمره ، أن جعلت النساء يعدون أعمارهن بأعداد أزواجهن !

« وكانت المرأة الواحدة تتزوج رجلاً بعد آخر ، وتمضي في ذلك من غير حياء . وقد ذكر « مارشل » (٦٠ – ١٤٠م) عن امرأة تقلبت في أحضان ثمانية أزواج في خمس سنوات . وأعجب من كل ذلك وأغرب ما ذكره القديس « جروم » (٣٤٠ – ٤٢٠م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها ، وكانت هي أيضاً الحادية والعشرين لبعلها !

« ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل والمرأة من غير عقد مشروع . وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر ، أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنا شيئاً عادياً .. فهذا « كاتو » (Cato) الذي أسندت إليه « الحسبة الخلقية » سنة ١٨٤ قبل الميلاد يجهر بجواز اقتراف الفحشاء في عصر الشباب . وذاك « شيشرون » (Cisro) المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ، بإطلاق العنان لهم في هذا الشأن . ولا يقتصر الأمر عليهما ، بل يأتي « أبكتيتس » (Epictetus) الذي يعد من المتصلبين في باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين (Stoics) فيقول لتلاميذه .. مرشداً ومعلماً .. « تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج – ما استطعتم – ولكنه لا ينبغي أن تلوموا أحداً ، أو

تؤنبوه ، إذا لم يتمكن من كبح جماح شهواته .. »[1] .

ثم كان من ثمرة هذه الاتجاهات ما سبق أن أثبتناه[2] ، من انحلال عرى المجتمع الروماني .. ثم دمار هذا المجتمع . وسقوط الدولة الرومانية .

* * *

ومن هذه الناحية الإباحية المطلقة والشهوانية العارمة ، واعتبار اللذة غاية التقاء الجنسين التي لا غاية وراءها ...

ومن هذا الطرف القاصي انتقلت أوربا – أو أرادت الكنيسة نقلها – إلى الطرف القاصي الآخر . إلى الرهبنة وإلى الفرار من المرأة ، وإلى مهانتها في الوقت ذاته وازدرائها .

وقد سبق أن تحدثنا عن الرهبنة وسلطان الكنيسة في المجتمع الأوربي واضطرابه وتخبطه ، حتى أفلتت أوربا منه شاردة إلى تيه الجاهلية الحديثة .
ونزيد الأمر هنا إيضاحاً فيما يتعلق بالنظرة إلى المرأة خاصة ، وإلى العلاقة بين الجنسين في ظل التصور الكنسي ..

« فمن نظريتهم الأولية الأساسية في هذا الشأن ، أن المرأة ينبوع المعاصي ، وأصل السيئة والفجور ، وهي للرجل باب من أبواب جهنم ، من حيث هي مصدر تحريكه وحمله على الآثام . ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء ، فبحسبها ندامة وخجلاً أنها امرأة ! وينبغي لها أن تستحي من حسنها وجمالها ، لأنه سلاح إبليس الذي لا يوازيه سلاح من أسلحته المتنوعة ، وعليها أن تكفر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبداً ، لأنها هي التي قد أتت بما أتت من الرزء والشقاء للأرض وأهلها ..

---

(١) عن كتاب (الحجاب) للأستاذ المودودي ص ٢٠ – ٢٣ .
(٢) ص ٥٤ – ٥٦ .

«ودونك ما قاله «ترتوليان» (Tertulian) أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتها ، مبيناً نظرية المسيحية[١] في المرأة ..

«إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة . ناقضة لقانون الله . ومشوهة لصورة الله – أي الرجل» .

«وكذلك يقول «كرائي سوستام» (Chry Sostem) الذي يعد من كبار أولياء الديانة المسيحية في شأن المرأة :

«هي شر لا بد منه ، ووسوسة جلّية ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة والبيت ، ومحبوبة فتاكة ، ورزء مطلي مموه !

«أما نظريتهم الثانية في باب النساء ، فخلاصتها أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هي نجس في نفسها يجب أن تتجنب – ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي مشروع – هذا التصور الرهبني للأخلاق الذي كانت جذوره تكاد تتأصل في أوربا من قبل ، بتأثير الفلسفة الإشراقية (Neo-Platonism) جاءت المسيحية فزادته شدة ، وبلغت به منتهاه . وذلك أن أصبحت حياة العزوبة مقياساً لسمو الأخلاق وعلو شأنها ؛ كما صارت الحياة العائلية علماً على انحطاط الأخلاق ومهانة الطباع . وجعلوا يعدون العزوبة وتجنب الزواج من أمارات التقوى والورع وذكاء الأخلاق . وأصبح من المحتوم لمن يريد أن يعيش عيشة نزيهة ألا يتزوج أصلاً ، أو لا يعاشر امرأته معاشرة الزوج لزوجته على الأقل ! وكذلك قرروا ووضعوا القوانين في مؤتمراتهم الدينية المتعددة بأن لا يختلي رجال الكنيسة بأزواجهم . وألاّ يتلاقى الرجل والمرأة منهم إلا بمرأى من الناس ، أو أمام رجلين من

(١) الأولى أن نعبر دائماً «بالنظرية الكنسية» لبعد ما بين حقيقة النصرانية ، و«التصورات الكنسية» .

رجالهم على الأقل .. وما آلوا جهداً في أن يثبتوا في قلوب الناس الشعور ببشاعة العلاقة الزوجية وتنجسها .. وخذ لذلك مثلاً أن كان شائعاً بينهم ، أن الزوجين اللذين اتفق لهما أن يبيتا معاً ليلة عيد من الأعياد ، لا يجوز لهما أن يعيّدا ويشتركا مع القوم في رسومهم ومباهجهم ، كأني بهم يرون أنهما قد اقترفا إثماً سلبهما حق المشاركة في حفل ديني مقدس عندهم .. وقد بلغ من تأثير هذا التصور الرهبني ، أن تكدر صفو ما بين أفراد الأسرة والعائلة من الأواصر . وحتى ما بين الأم والولد منها . إذ أمسى كل قرابة وكل سبب ناتج عن عقد الزواج يعد إثماً وشيئاً نجساً !

«وهاتان النظريتان ما وضعتا من مكانة المرأة وحطتا من شأنها في حقول الأخلاق والاجتماع فحسب ، بل كان من مفعولهما القوي ، ونفوذهما البالغ في القوانين المعينة ، أن أصبحت الحياة الزوجية مبعث حرج وضيق للرجال والنساء بجانب ، وبجانب آخر انحطت منزلة المرأة في المجتمع في كل ناحية من نواحي الحياة»[1] .

* * *

ثم انفلتت أوربا من ربقة الكنيسة وتصوراتها الكنسية ، وشردت عن الله وعن الدين كله ، ومضت في شرودها آبقة من كل ما يربطها بالله وبالدين : صحيحه وزائفه على السواء !

وفي خلال القرن التاسع عشر ظهر داروين وفرويد وكارل ماركس جميعاً .

وكانت إيحاءاتهم وتوجيهاتهم كلها منصبة على تحقير الإنسان بشتى الطرق . مرة بحيوانيته المطلقة على يد داروين . ومرة بوحله الجنسي المطلق

(١) كتاب الحجاب «للأستاذ المودودي» ص ٢٥ – ٢٨ .

على يد فرويد . ومرة بسلبيته وضآلة دوره تجاه المادة والعوامل الاقتصادية على يد كارل ماركس .

وكل هذه الايحاءات والتوجيهات كما تؤثر في النظرة إلى الإنسان ذاته ، تؤثر كذلك في النظرة إلى المرأة وإلى العلاقات بين الجنسين بصفة خاصة . وتحطم كل قوائم الأخلاق . وتطلق الجنسين حيوانين يتلمسان الشهوة واللذة لذاتهما .. حتى الهدف الحيواني من حفظ النوع بالنسل لم يعد الأناسي في أوربا وأمريكا ينظرون إليه إلا على أنه قيد يحد من حرية الاختلاط الجنسي ؛ ويحمّل الذكر والأنثى تبعات لا يريدان أن يتحملاها ! فأصبح همهما معاً هو التخلص من آثار اللذة بعد الالتقاء الجنسي ، بمنع الحمل ، أو بالإجهاض أو بوأد الوليد . (وسنتحدث عن هذا بشيء من التفصيل في فصل تال) ..

المهم هنا أن نقرر جموح النظرة إلى المرأة ، بعد انفلات أوربا من نير الكنيسة والتصورات الكنسية ، وشرودها – إبان هذا – عن الله وعن منهجه في الحياة ؛ والفصل بين اللذة الجنسية في علاقات الجنسين وأهدافها الإنسانية – ثم أهدافها الحيوانية أيضاً !

« قالت لي إحدى الفتيات الأمريكيات في معهد المعلمين (جريلي كولورادو) في أثناء مناقشة عن الحياة الاجتماعية في أمريكا :

« إن مسألة العلاقات الجنسية مسألة بيولوجية بحتة ، وأنتم – الشرقيون – تعقّدون هذه المسألة البسيطة بإدخال العنصر الأخلاقي فيها . فالحصان والفرس ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والديك والفرخة .. لا يفكر أحد منها في حكاية الأخلاق هذه ، وهو يزاول الاتصال الجنسي . ولذلك تمضي حياتها سهلة بسيطة مريحة !!!

«وكانت إحدى المدرسات في المعهد المركزي لتعليم اللغة الإنجليزية

للغرباء بمعهد ويلسون للمعلمين بواشنطون ، تلقي على مجموعة من طلبة أمريكا اللاتينية – الذين يعدون في هذا المركز لتلقي الدراسة باللغة الإنجليزية – درساً في تقاليد المجتمع الأمريكي . وفي نهاية الدرس سألت طالباً من جواتيمالا عن ملاحظاته عن المجتمع الأمريكي .. فقال لها : لقد لاحظت أن فتيات صغيرات في سن الرابعة عشرة وفتياناً صغاراً في سن الخامسة عشرة يزاولون علاقات جنسية كاملة ... وهذا وقت مبكر جداً لمزاولة هذه العلاقات .. وكان ردها في حماسة :

«إن حياتنا على الأرض جد قصيرة . وليس هناك وقت نضيعه أكثر من الرابعة عشرة ...»[(١)] .

وقد اخترت هذين النموذجين بالذات من مئات الأمثلة التي شاهدتها هناك . لأن صاحبتيهما مدرّستان ، وتأثير المدرّسة في نشر مثل هذه الإيحاءات أوسع من تأثير أي شخص آخر .

ومع هذه الإباحية المطلقة – أو بسبب هذه الإباحية المطلقة – لم تعد العلاقات الجنسية الطبيعية المباحة الرخيصة تشبع الميول الجنسية ، فانتشر الشذوذ الجنسي ، بالميل إلى الجنس الآخر سواء في عالم الفتيان ، أو في عالم الفتيات ، ويحتوي تقريرا «كنزي» عن «السلوك الجنسي عندالرجال ، والسلوك الجنسي عند النساء» ، إحصاءات دقيقة وعجيبة عن هذا الشذوذ .

وأذكر – بقدر ما يسمح الحياء وأدب الكتابة – مشاهدة شخصية في أحد فنادق واشنطن :

«كنت مع زميل مصري ننزل في هذا الفندق – بعد وصولنا إلى

---

(١) من كتاب «أمريكا التي رأيت» .

الولايات المتحدة الأمريكية بيومين اثنين – وقد أنس إلينا عامل المصعد الزنجي – لأننا أقرب إلى لونه ، ولأننا لا نحتقر الملونين – فجعل يعرض علينا «خدماته» في «الترفيه» .. ويذكر «عينات» من هذا الترفيه . بما فيها «الشذوذات» المختلفة ..

«وفي أثناء العرض جعل يقص علينا أنه كثيراً ما يكون في إحدى الحجرات «زوج» من الفتيان أو الفتيات . ثم يطلبان إليه أن يدخل إليهما زجاجة كوكا كولا .. دون تغيير لوضعهما عند دخوله !!!

«ولما بدا علينا الاشمئزاز والاستغراب ، وقلنا له :

«أما يخجلان ؟

«أجاب بدوره متعجباً لاشمئزازنا وتعجبنا وسؤالنا عن الخجل :

«لماذا ؟ إنهما يرضيان ميولهما الخاصة ، ويمتعان أنفسهما ... وعلمت فيما بعد – من المشاهدات الكثيرة – أن المجتمع الأمريكي لا يستنكر على إنسان أن يرضي لذته بالشكل الذي يروق له . طالما أن ليس هناك إكراه .. ومن ثم فلا جريمة .. حتى فيما لا يزال القانون – على الورق – يعده جريمة ..»[1] .

والحال في أوروبا – وبخاصة في بلاد الشمال – لا يفترق كثيراً عن الحال في أمريكا . أما أثر هذا الانحلال في حياة المجتمع ، وفي تدمير «الإنسان» وتحطيم المجتمع الإنساني ، وفي تهديد الحضارة الإنسانية

---

(١) من كتاب : «أمريكا التي رأيت» .

الراهنة بالانزواء ، كما انزوت حضارة الرومان القديمة ، فسنتحدث عنه في فصل تال .

* * *

والكنيسة ؟ ما شأنها مع هذا الانحلال الجارف ؟ ورجال الدين ما شأنهم مع المجتمع الجديد ؟

إن كثيرين ممن لم يعيشوا بعض الوقت في أوروبا أو أمريكا – أو ممن عاشوا هناك ولكنهم لم يتعمقوا وراء الظواهر – كثيراً ما تخدعهم كثرة الكنائس وانتشارها – وبخاصة في الولايات المتحدة – حيث تقوم في البلد الصغير الذي لا يتجاوز تعداده عشرة آلاف نسمة أكثر من عشرين كنيسة أحياناً .. وكثيراً ما تخدعهم كثرة مظاهر الاحتفالات الدينية والمراسم والأعياد الدينية .. وكثيراً ما تخدعهم كثرة الأحزاب التي تحمل أسماء «المسيحية» .. ثم كثيراً ما يخدعهم ما يكتبه ويذيعه رجال الدين من كتب ومقالات وبحوث وإذاعات في موضوعات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية البحتة أحياناً ..

كثيراً ما يخدعهم هذا كله فيحسبون أن للدين شأناً في أوروبا وأمريكا. وأن لرجال الدين أثراً في الحياة الاجتماعية هناك .. وهذه نظرة سطحية لا تدرك حقيقة ما هو واقع هناك .

إن الكنيسة – بعد أن ذاقت مرارة الإهمال ، ووحشة البعد عن الحياة الاجتماعية ، بعد شرود الناس منها منذ عصر النهضة ، وخاصة منذ عصر التنوير ، ثم عصر الفلسفة الوضعية المادية – قد عادت تلهث وراء المجتمع ، وتتعلق بأهداب الناس . لا لتقود المجتمع ولا لتنقل الناس إلى الدين . ولكن لتجري وراء المجتمع ، ولتتملق شهوات الناس !

عادت لتقيم في الكنائس – بعد القداس – حفلات مختلطة للجنسين

يشرب فيها النبيذ ، وتدور حلقات الرقص ، وتعرض فيها ألعاب التسلية ، ويتخاصر فيها الفتيان والفتيات المخمورين ، ويلتذون نشوة المخاصرة والعناق حتى الفجر .. كل أولئك لاجتذاب الشبان والشواب إلى الكنيسة !

لقد جربت الكنيسة حين وقفت – بالباطل – في وجه ميول الناس الفطرية ، كيف خرجوا عليها وداسوها وأهملوها . فعادت الآن تتجنب أن تقف – بالحق – في وجه شهواتهم ونزواتهم ، فيدوسوا عليها ويهملوها !

لقد عادت أوربا إلى حياة الرومان القديمة التي تسمح للآلهة والأرباب أن تنطق بالرجز على ألسنة الكهان ، وأن تكون مواسمها مواسم بهجة ولذة ومتاع .. وذلك دون أن يسمحوا لها بالتدخل في شؤون حياتهم أو توجيهها وجهة تنافي اللذة والمتاع .

ويخدع بعض الناس هنا فيحسبون أن للكنيسة نفوذاً في حياة الناس . وأن للدين هناك وجوداً جدياً يستحق الاحترام . ويحسبون أن « مرونة » الكنيسة و « ثقافتها » هناك هي التي ضمنت لها هذا النفوذ ، وضمنت للمسيحية أن تبقى بعد أعاصير عهد النهضة والتنوير والمادية .. وهو مجرد وهم لا يقوم على معرفة ما هو واقع هناك .

ولكن رجلاً أوروبياً مستنيراً مدركاً مثل « ليوبولد فايس » الذي أسلم واهتدى وسمى نفسه « محمد أسد » لا يخدعه ما يخدع بعض الناس هنا .. لأنه عاش هناك . فيقرر في كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » ما قررناه ، وما تضمنته مشاهداتنا الكثيرة في أمريكا عن هذا الأمر بالذات ..

يقول :

« لقد سيطر على الغرب الحديث في أوجه نشاطه وجهوده اعتبارات من الانتفاع العملي (المادي) ومن التوسع الفعال فقط . وقد كان هدفه

الذاتي إنما هو المعالجة والاكتشاف لكوامن الحياة ، من غير أن ينسب إلى تلك الحياة حقيقة أدبية في ذاتها . أما قضية «معنى الحياة» والغاية منها ، فقد فقدت منذ زمن بعيد في نظر الأوربي الحديث جميع أهميتها العملية .. » (ص ٣٠)

«إن الاتجاه الديني مبني دائماً على الاعتقاد بأن هناك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً ، وأننا – نحن البشر – مجبرون على أن نخضع أنفسنا لمقتضياته ، ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة إلى خضوع ما إلا لمقتضيات اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو قومية . إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني . ولكنه «الرفاهية» . وإن فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها عن طريق الرغبة في القوة .. وكلا هذين موروث من المدنية الرومانية القديمة .. » (ص ٣٣)

«كانت الفكرة التي تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية الاجتياح بالقوة ، واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده . وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومان في عنفهم سوءاً ولا في ظلمهم انحطاطاً . وإن «العدل الروماني» الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم . ومن البين أن اتجاهاً كهذا ، كان ممكناً فقط على أساس ادراك مادي خالص للحياة وللحضارة . إدراك مادي هذبه على التأكيد ذوق فكري . ولكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية . إن الرومانيين – في الحقيقة – لم يعرفوا الدين . وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية .. لقد كانت أشباحاً سكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي . ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية . بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها – إذا سئلت مثل ذلك – ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية .

« تلك كانت التربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة .. ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة في أثناء تطورها . ثم إنها بطبيعة الحال قد بدلت وحورت في ذلك الإرث الثقافي الذي ورثته عن رومية في أكثر من ناحية واحدة .. ولكن الحقيقة الباقية أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف الغربي للحياة والأخلاق ، يرجع إلى المدنية الرومانية .. وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعياً بحتاً ، ولا دينياً – لا على الافتراض بل على الحقيقة – فكذلك هو في الغرب الحديث .. ومن غير أن يكون لدى الأوربي برهان على بطلان الدين المطلق ، ومن غير أن يسلم بالحاجة إلى مثل هذا البرهان ، ترى التفكير الأوربي الحديث – بينما هو متسامح في الدين ، وأحياناً يؤكد أنه عرف اجتماعي – ترك على العموم ، الأخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية .

« إن المدنية الأوربية لا تجحد الله البتة ، ولكنها لا ترى مجالاً ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي .. فقد اصطنعت فضيلة من العجز الفكري في الإنسان – أي من عجزه عن الإحاطة بمجموع الحياة – وهكذا يميل الأوربي الحديث ، إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التي ينتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة .. وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك ، فإن العقل الأوربي يميل بداءة إلى إسقاط « الله » من دائرة الاعتبارات العملية » . (ص ٣٦ – ٣٧)

ويقرر الأستاذ أبو الحسن الندوي هذه الحقيقة باختصار في كتابه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » في قوله :–

« ديانة أوروبا اليوم ، المادية ، لا النصرانية . فما لا شك فيه أن دين أوروبا اليوم الذي يملك عليها القلب والمشاعر ، ويحكم على الروح هو

«المادية» لا «النصرانية» كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوروبية عن كثب ، لا عن كتب ، بل وعن كتب أيضاً . ولم ينخدع بالمظاهر الدينية ، التي تزيد أبهة الدولة ، والتي يجد فيها الشعب ترويحاً للنفس وتنوعاً .. ولم ينخدع بزيارتهم للكنائس ، وحضورهم في تقاليدها» ... (ص ١٥٤)

ولا بأس – بعد رسم هذه الصورة بقلم الكاتبين الواعيين – أن أضيف إليها فقرة مما كتبته عن مشاهداتي الخاصة في كتاب «أمريكا التي رأيت»[1] عن موضوع الكنيسة والمجتمع بالذات ، في مسألة المرأة والعلاقات بين الجنسين .. فقد يزيد في جلاء الوهم الذي يراود الزائرين العابرين ، أو المخدوعين في المظاهر والعناوين ..

«ليس أكثر من الأمريكان تشييداً للكنائس ، حتى لقد أحصيت في بلدة واحدة ، لا يزيد سكانها على عشرة آلاف ، أكثر من عشرين كنيسة ، وليس أكثر منهم ذهاباً إلى الكنائس في ليلات الأحد وأيامه ، وفي الأعياد العامة وأعياد القديسين المحليين . وهم أكثر من «الأولياء» عند عوام المسلمين !

«وبعد ذلك كله ليس هناك من هو أبعد من الأمريكي عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته . وليس أبعد من الدين عن التفكير الأمريكي وشعوره وسلوكه .

«وإذا كانت الكنيسة مكاناً للعبادة في العالم النصراني – على تفاوت – فإنها في أمريكا مكان لكل شيء إلا للعبادة . وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أي مكان آخر معد للهو والتسلية ، أو ما يسمونه بلغتهم Good

---

(١) تحت الطبع .

«Fun» Time ومعظم قصادها إنما يعدونها تقليداً اجتماعياً ضرورياً، ومكاناً للقاء والأنس ، ولتمضية «وقت طيب» وليس هذا شعور الجمهور وحده ، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسة ورعاتها .

«ولمعظم الكنائس ناد يتألف من الجنسين – شباناً وشواب – ويجتهد راعي كل كنيسة أن يلحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن . وبخاصة أن هناك تنافساً كبيراً بين الكنائس المختلفة المذاهب والنحل . ولهذا تتسابق جميعاً في الإعلان عن نفسها بالنشرات المكتوبة ، وبالأنوار الملونة على الأبواب والجدران ، للفت الأنظار ، وبتقديم البرامج اللذيذة المشوقة ، لجلب الجماهير ، بنفس الطريقة التي تتبعها المتاجر ، ودور العرض السينمائي والتمثيل . وليس هناك من بأس في استخدام أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأبرعهن في الغناء والرقص والترويح .. تماماً كما تقف فتيات في ثياب شديدة اللمعان والإثارة – أو في «مايوه» – في مداخل وطرقات دور السينما لجذب الأنظار ..

«وهذه – مثلاً – محتويات إعلان عن حفلة كنسية ، كانت ملصقة في قاعة اجتماع الطلبة في إحدى الكليات ، لجذب طلبة الكلية وطالباتها إلى كنيسة معينة في المدينة الجامعية الصغيرة :

«يوم الأحد – أول أكتوبر سنة ١٩٥٠ – في الساعة السادسة مساء ..

«عشاء خفيف . ألعاب سحرية . ألغاز . مسابقات . تسلية . رقص» .

«وليس في هذا أية غرابة . لأن راعي الكنيسة لا يحس أن عمله يختلف في شيء عن عمل مدير المسرح ، أو مدير المتجر .. النجاح أولاً وقبل كل شيء .. ولا تهم الوسيلة .. وهذا النجاح يعود عليه بنتائجه الطيبة : المال ، والجاه ، فكلما كثر عدد الملتحقين بكنيسته عظم دخله وزاد كذلك

احترامه ونفوذه في البلدة . لأن الأمريكي بطبيعته يؤخذ بالضخامة في الحجم والعدد . وهي مقياسه الأول في الشعور والتقدير ..

«كنت ليلة في إحدى الكنائس ببلدة (جريلي) بولاية (كولورادو) فقد كنت عضواً في ناديها ، كما كنت عضواً في عدة نوادٍ كنسية في كل جهة عشت فيها ما بين واشنطن في الشرق وكاليفورنيا في الغرب . إذ كانت هذه ناحية هامة من نواحي المجتمع ، تستحق الدراسة عن كثب ، ومن «الباطن» لا من «الظاهر» وكنت معنيًّا بدراسة المجتمع الأمريكي ..

«وبعد أن انتهت «الخدمة الدينية» في الكنيسة ، واشترك في التراتيل فتية وفتيات من الأعضاء ، وأدى الآخرون الصلاة .. دلفنا من باب جانبي إلى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة «الصلاة» .. يصل بينهما باب .. وصعد «الأب» إلى مكتبه ، وأخذ كل فتى بيد فتاة ، وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتي ، كانوا وكن يقومون بالترتيل ويقمن ..

«وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والأضواء الزرقاء ، وقليل من المصابيح البيضاء .

«وحمي الرقص على أنغام «الجرامفون» وسالت الساحة بالأقدام والسيقان ، والتفت الأذرع بالخصور والتقت الشفاه والصدور .. وكان الجو كله غراماً .. حين هبط الأب من مكتبه ، وألقى نظرة فاحصة على المكان ومن في المكان ، وشجع الجالسين والجالسات ممن لم يشتركوا في الحلبة ، على أن ينهضوا فيشاركوا .. وكأنما لحظ أن المصابيح البيضاء تزيد نسبتها فتفسد ذلك الجو «الرومانسي» الحالم ، فراح في رشاقة الأمريكاني وخفته ، يطفئها واحداً واحداً ، وهو يتحاشى أن يعطل حركة الرقص ، أو يصدم «زوجاً» من الراقصين في الساحة .. وبدا المكان بالفعل أكثر «رومانسية» . ثم تقدم إلى «الجرامفون» ليختار أسطوانة للرقص ، تناسب

ذلك الجو ، وتشجع القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه .

«واختار ..

«اختار اغنية أمريكية مشهورة اسمها (But, baby it is cold outside) (ولكن الجو – يا صغيرتي – بارد في الخارج) ..

«وهي تتضمن حواراً بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما . وقد احتجزها الفتى في داره ، وهي تدعوه أن يدعها تمضي لتعود إلى دارها ، فقد تأخر الليل ، وأمها تنتظرها ، وكلما تذرعت بحجة أجابها بتلك « اللازمة » (ولكن الجو يا صغيرتي بارد في الخارج ...)

«وانتظر الأب ، حتى رأى خطوات « بناته وبنيه » تنساب على موسيقى تلك الأغنية المثيرة . وبدا راضياً مغتبطاً . وغادر ساحة الرقص إلى داره ، تاركاً لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة .. البريئة .. على أن يسلم مفتاح الكنيسة في داره آخر «زوج» ينصرف من الكنيسة . فالانصراف يكون تباعاً حسب مزاج كل زوج !!!

«(وأب) آخر يتحدث إلى صاحب لنا عراقي من الطلبة ، توثقت بينه وبينه عرى الصداقة ، فيسأله عن «ماري» – زميلته بالكلية – لم لا تحضر إلى الكنيسة الآن ؟ ويبدي أنه لا يعنيه أن تغيب فتيات الكنيسة جميعاً وتحضر «ماري» . وحين يسأله الشاب عن سر هذه اللهفة ، يجيب « **الأب** » .. إنها جذابة . وإن معظم الشبان إنما يحضرون وراءها !

«ويحدثني شاب من شياطين الشبان العرب العراقيين الذين كانوا يدرسون في أمريكا .. وكنا نطلق عليه اسم «أبو العتاهية» – وما أدري إن كان ذلك يغضب الشاعر القديم أو يرضيه ! – أن «صديقته» كانت تنتزع نفسها من بين أحضانه أحياناً ، لأنها ذاهبة للترتيل في الكنيسة ..

وكانت إذا تأخرت لم تنج من إشارات «الأب» وتلميحاته ، إلى جريرة «أبي العتاهية» في احتجازها عن حضور الصلاة !.. هذا إذا جاءت من غيره .. فأما إذا استطاعت أن تجره وراءها ، فلا لوم ولا تثريب !

«ويقول لك هؤلاء «الآباء» : إننا لا نستطيع أن نجتذب هذا الشباب إلا بهذه الوسائل . ولكن أحداً منهم لا يسأل نفسه : وما قيمة اجتذابهم إلى الكنيسة .. وهم يخوضون إليها مثل هذا الوحل ، ويقضون ساعاتهم فيه ؟ أهو الذهاب إلى الكنيسة هدف في ذاته ؟ أم آثاره التهذيبية في الشعور والسلوك ؟ من وجهة نظر «الآباء» التي أوضحتها فيما سلف – مجرد الذهاب إلى الكنيسة هو الهدف . وهو وضع لمن يعيش في أمريكا مفهوم !

«ولكني أعود إلى مصر ، فأجد من يتحدث أو يكتب عن الكنيسة في أمريكا . وعن سماحتها في مقابلة الخطأ والانحراف . وعن نشاطها في تطهير القلوب والأرواح . وعن استبقاء سلطان الدين بهذه الأساليب المتطورة ، التي لا تتشدد فيهرب منها الناس . «ولله في خلقه شؤون»[1] .

* * *

وهكذا يتضح من هذا الاستعراض – المجمل على طوله – مدى التخبط والاضطراب في النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين ، في تاريخ أوربا . ومدى التأرجح بين الطرفين المتباعدين . هذا التأرجح الذي لم يعتدل به الميزان قط ، لوضع كل شطر من شطري النفس الواحدة في مكانه الحقيقي : ولإدراك دور المرأة الحقيقي ، ومكانها الطبيعي . والذي شقي به الجنسان ، وشقيت به البشرية – وما تزال تشقى – حتى يأذن الله ، فتتسلم زمام الحضارة البشرية يد أمينة ، موصولة بالله ومنهجه للحياة ..

---

(١) من كتاب «أمريكا التي رأيت» .

كما وقع التخبط ، والتطرف ، والهزات العنيفة ، والتأرجح بين الطرفين الجامحين دائماً ، وعدم اعتدال الميزان في الوسط العادل المتناسق .. كما وقع هذا كله في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته . وفي النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين .. كذلك وقع في النظم الاقتصادية والاجتماعية سواء بسواء .

وكان هذا طبيعياً ومنتظراً من نظم تقوم على تلك النظرة الخاطئة إلى الإنسان ، وعلى الجهل المطبق بحقيقة الإنسان . فما لم تصح النظرة إلى الإنسان ذاته ، وحقيقة فطرته واستعداداته ، وغاية وجوده وحدود سلطاته ... الخ ما لم تصح النظرة إلى هذا كله ، فلا مفر من التخبط والأرجحة في كل ارتباطاته الأخرى . وبخاصة ارتباطاته الاقتصادية والاجتماعية .. فهذه فروع من تلك وأثر من آثارها .

وهذا الذي نقرره في الفقرة السابقة هو مفرق الطرق بين التفسير الإنساني للتاريخ – وهو الذي يتفق مع التصور الإسلامي – والتفسير المادي والاقتصادي للتاريخ . وهو الذي تقوم عليه الماركسية .

ولا عبرة بما يلح فيه الماركسيون من أن ادوات الإنتاج هي التي تنشئ نوع الارتباطات في المجتمع ، وأن هذه الارتباطات – وحدها – هي التي تنشئ النظرة إلى « الإنسان » وإلى « الأخلاق » وإلى « الدّين » وإلى « المبادئ والقيم ، والآداب والعادات والتقاليد » وإلى « الحكم » وإلى « النظم » وإلى « الأوضاع » وإلى سائر الارتباطات في حياة الإنسان .

لا عبرة بهذا الإلحاح في إفراد العوامل الاقتصادية – وحدها – بتسيير كل شيء في حياة الكائن الإنساني ، والمجتمع الإنساني ، واعتبارها هي

– وحدها – إلـٰها قادراً على التغيير والتبديل ، قاهراً لا بد للإنسان إزاءه من الخضوع «للحتمية» والتسليم .

لا عبرة بهذا الإلحاح ، فإن هو إلا لوثة من لوثات «الماركسية» الكثيرة . وقد تهلهلت «الماركسية» على كل حال – «كنظرية» – تحت مطارق الواقع ، ودوافع الفطرة ، وحقائق الدوافع البشرية الأصيلة ، واحتاجت إلى التعديلات المتوالية ، على يد لينين وستالين وخروشوف . وهم يسمونها «تعديلات» وهي في الواقع «عدولات» عن أسس النظرية مع الاحتفاظ بالشارة والإطار . وهم يعللون هذه العدولات ، بأن الماركسية مذهب متطور .. على حين أن ليس هناك مذهب ، ولا نظرية ، ولا دين ، يحتشد بالحتميات احتشاد الماركسية الأولى ، كما وضعها ماركس وأنجلز . فدعوى «التطور» بعد الماركسية ، دعوى جديدة جداً ، لمواجهة مطارق الفطرة ، ومطارق الواقع ، وجهاد «الذات الإنسانية» في روسيا والصين ، وسائر البلاد التي أخضعتها الشيوعية ، لإثبات وجودها على الرغم من الثقل الساحق للنظام البوليسي الرعيب .

ونحن لا نناقش «الماركسية» هنا . ولكننا نستعرض فقط بعض مظاهر التخبط والأرجحة في النظم الاقتصادية والاجتماعية التي قامت مستندة إلى الجهالة المطلقة بحقيقة الإنسان ونظرته وميوله واستعداداته وحاجاته الحقيقية . بسبب أنها قامت بمعزل عن منهج الله العليم بحقيقة هذا الإنسان ، وبما يصلح له وما يصلحه من النظم والأوضاع .

لقد سارت الأوضاع تتأرجح بين التطرف هنا والتطرف هناك على نفس الطريقة التي سارت بها في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته ، والنظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين . بل أشد تأرجحاً وأكثر ضحايا ، وأشد بلاءً . منذ كان الاقتصاد وتوزيع السلطات في المجتمع مجالاً لصراع

أشد ، يبلغ حد الوحشية الرعيبة في كثير من الأحيان . ومنذ كانت معالجة الخطأ الجامح تأتي بخطأ آخر جامح في الجانب الآخر . ولا يعتدل بها الميزان قط في يد الإنسان ، الجاهل بنفسه ومقدراته وحاجاته الحقيقية ، الخاضع لشهواته وضعفه وهواه ، الشارد في الوقت ذاته عن الله ومنهجه للحياة .

والماركسية والتفسيرات المادية عموماً تخرج الإنسان من حسابها وهي تسجل هذه التقلبات والأطوار . والماركسية بصفة خاصة تقيم الاقتصاد – وحده – إلـٰهاً متفرداً متصرفاً في أقدار « الإنسان » بعيداً عن إرادة الإنسان وفطرته واستعداداته وطاقاته . فهي دائماً خاضعة لحتمية العوامل الاقتصادية ، أو ناشئة من هذه العوامل الاقتصادية .

وهي تعزو هذه التقلبات والأطوار إلى تغير أدوات الإنتاج ، فإن تغير هذه الأدوات « يحتم » تغير الارتباطات في المجتمع ، ومن ثم يوجد « التناقض » بين الوضع القائم ، وما يتطلبه تغير أدوات الإنتاج من تغير في الروابط الاجتماعية والاقتصادية ، فتقع الثورة أو الانقلاب لإنشاء وضع جديد ملائم لتغير أدوات الإنتاج . والإنسان لا دور له في هذا كله .. ولو كان هو الذي يغير أدوات الإنتاج بيده أو بفكره . فهذا ما يسكت عنه ماركس . وكأن أدوات الإنتاج هذه إلـٰه آخر . ولكنه إلـٰه يغير نفسه ! فتنشأ « حتمية » التغير في الأوضاع الاجتماعية تبعاً للتغير في ذات الإلـٰه !

ما علينا .. فنحن كما قلنا لا نناقش الماركسية هنا ، ولكن نستعرض فقط الأرجحة في حياة الناس الشاردين من الله . غير أننا سنناقش فقط هذه « الحتمية » والأسباب الواهنة التي قامت عليها في الفلسفة الماركسية .

إن الماركسيين يعزون التقلبات والأطوار كلها إلى تغير أدوات الإنتاج .

ومن ثم تغير الأوضاع الاجتماعية . وهم يعدون هذه الأطوار إذن «حتمية» في خط سير التاريخ .. فعلام يستندون ؟

إنهم يستندون – كما يقول كارل ماركس – إلى الواقع التاريخي .

وعلى الرغم مما في ادعاء فرد واحد – أو حتى مجموعة من الأفراد – أنهم يحيطون علماً بكل وقائع التاريخ ، وبكل العوامل المستترة والظاهرة في هذا التاريخ ، وبكل دوافع «الإنسان» في جميع الأجيال والأزمان ، لا في الماضي فقط ، ولكن في الحاضر وفي المستقبل كذلك – بينما العلماء المتخصصون في القرن العشرين يعترفون بجهالتهم المطلقة بالإنسان ، وبأنهم يقفون على عتبات المجهول .. على الرغم مما في هذا الادعاء العريض من «خرافة» لا يجوز أن يقوم عليها «رأي أو فرض» ، فضلاً على أن يقوم عليها «مذهب» ! فإن الماركسية قد نبذت كل رأي آخر يمكن أن يخالف هذا المذهب . وقامت بالمذابح الرهيبة للملايين من البشر لمجرد أن يكون لهم رأي آخر في تاريخ الإنسان . أي نفس ما فعلت «الكنيسة» شيئاً منه ، وهي تحرق العلماء الذين يرون رأياً آخر في «خرافاتها المقدسة» .. وهي لا ترتفع كثيراً على «الخرافات الماركسية المقدسة» .. «العلمية !» .. في هذا الزمان !

ولكن الماركسية – «المذهب العلمي» – تريح نفسها من متاعب «الدراسة العلمية» لكل عوامل التاريخ ، ولكل دوافع الإنسان .. فهي تختار عنصراً واحداً من عناصر الحياة – عنصر الاقتصاد – وتعتبره – كما قلنا – إلـهاً . لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه . ولا حيلة للإنسان في «حتمية» ما يراه !

غير أنها لا تدرس آثار قدرة هذا الإلـه في تاريخ العالم .. إنما تدرسه في تاريخ أوربا . ثم تعمم حتمية إرادته على الأرض كلها .. وهذه كذلك إحدى تخريفات «المذهب العلمي» القائم على الاستقصاء !

ومن ثم يعتبر الماركسيون أن تاريخ أوربا هو تاريخ العالم ؛ وأن إلـٰه الاقتصاد الذي حكم تاريخ أوربا هو الذي يحكم تاريخ العالم . ويقررون حتمية تلك الأطوار في تاريخ العالم استناداً إلى ما وقع في تاريخ أوربا .. من وجهة نظرهم ، التي تنحّي كل العوامل في تاريخ البشر ، لتقرر وحدانية إلـٰه الاقتصاد بالعمل !

وهم – طبعاً – لا يمكن أن يخطر على بالهم أنه على فرض أن هذا التاريخ صحيح ؛ وعلى فرض أنه تاريخ العالم لا تاريخ أوربا .. فإن هذه الأطوار تأرجحت هكذا بين طرفي الغلو دائماً ؛ ولم يعتدل بها الميزان أبداً ، ووجدت فيها « المتناقضات » المتصارعة ، نظراً إلى أنها قامت على مناهج من صنع الإنسان ، الجاهل بنفسه ، وبحاجاته الحقيقية ؛ المثقل في أحكامه واختياراته وتصرفاته بآثار هذا الجهل ؛ وبالضعف البشري ، والهوى المتقلب والشهوات العمياء ... وأنه في الوقت ذاته لم يستعن بمنهج الله ليضبط هذه الشهوات ، وهذا الهوى ، وهذا الضعف ، وهذا الجهل ، بضابط ثابت ، يخفف على الأقل من هذه الاندفاعات البشرية على غير هدى في كل اتجاه !

لا يمكن – طبعاً – أن يخطر هذا على بالهم . وهم يقيمون فلسفتهم الاقتصادية ابتداء على أساس المذهب المادي الذي ينكر أن يكون لهذا الكون إلـٰه . وهم يسخرون أشد السخرية ممن يعتقدون بوجود الله ...

ونحن الذين عصمنا الله من الشرود من كنف الله – لأنه لم تكن لنا كنيسة تطاردنا باسمه ، فنشرد منها ومن إلـٰهها ودينها ، ونمضي كالذين يقول الله عنهم : « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » ؛

ونحن الذين عصمنا الله من أن نكل إلى العلم الإنساني – أو بتعبير العلماء إلى الجهل الإنساني ! – مهمة وضع المناهج الأساسية للحياة

الإنسانية ، بل أمدنا بقواعد المنهج المنير . القائم على العلم المطلق بفطرة الإنسان واستعداداته وطاقاته وحاجاته الحقيقية .

نحن – وهذا فضل الله علينا – جديرون أن ننظر إلى المسألة نظرة أخرى . وأن نأخذ الأمور بالرفق والهدوء . والنظر « العلمي » الصحيح ، الذي يتقصى كل جوانب المسألة . ولا ينهش منها نهشة ويجري شارداً من الكنيسة ، وإلـه الكنيسة ، ودين الكنيسة ، وتصورات الكنيسة !

وعندئذ ندرك مظاهر التخبط والتأرجح . والأسباب الحقيقية الكامنة وراءها . وتكون لنا نظرتنا المستقلة . ونظرياتنا المستقلة . ومناهجنا المستقلة القائمة على دراستنا المستقلة ، المستمدة من منهج الله وهداه .. ومن ثم نرى أن هناك اختلافاً جذرياً أصيلاً بين منهجنا . وكل المناهج السائدة . وبين مذهبنا وكل المذاهب المعروفة ، وبين طبيعة نظرتنا لواقع الحياة البشرية وللتاريخ البشري وكل النظرات القائمة ؛ وبين تفسيرنا للحياة والتاريخ وكل تفسير آخر . وبين كل عنوان اتخذته الأنظمة الاجتماعية البشرية وعنوان نظامنا « الإسلامي » .

وليس هذا البحث المجمل مجال هذه الدراسة . فضلاً على أنها في حاجة إلى كفايات منوعة . تتجمع في تنظيم واحد . وتستوفي الزمن اللازم لهذه الدراسة الضخمة . في ظروف وأوضاع جادة في الأخذ بمنهج الله . وأمام عزمة حقيقية لتنفيذ هذا المنهج . ومن ثم تتجه إلى هذه الدراسة لتطبيق نتائجها في عالم الواقع ودنيا التعامل لا لمجرد البحث والدراسة والثقافة ! فالمنهج الإسلامي في التفكير والنظر منهج واقعي جاد . لا يسمح لأصحابه أن يبذلوا جهودهم لمجرد البحث والدراسة والثقافة ؛ إنما هم يبذلونها لتطبق ، ولتصبح واقعاً من الواقع . وذلك حين يكون هناك اتجاه جاد لتحكيم النظام الإسلامي كله في الحياة !

إنما المجال في هذا البحث المجمل مقصور على استعراض بعض التخبطات في الحياة الأوربية – في هذا الجانب – هذه الحياة التي طغت – مع الأسف – على رقعة الأرض كلها في هذا الزمان . والتي أصبحت مفهوماتها وتفسيراتها وشاراتها وعنواناتها ومصطلحاتها هي التي تغمر رقعة الأرض كلها . أو تندس في ثنايا التفكير والتعبير والتطبيق في كل مكان !

* * *

من الرق الروماني الشهير . إلى الإقطاع . إلى الرأسمالية . إلى الماركسية والنازية .. غلو في طرف يعالجه غلو آخر في الطرف الآخر .. وظلم لطبقة يعالجه ظلم آخر لطبقة أخرى .. واعتداء على « الإنسان » وخصائصه الأساسية في نظام . يعالجه اعتداء على « الإنسان » وخصائصه الأساسية في النظام الآخر .. ولا يعتدل الميزان مرة واحدة بالعدل بين الطبقات كلها . والتناسق بين طاقات الإنسان كلها . وإتاحة المجال « للفردية » التي يتميز بها كل فرد . مع رعاية حق « الجماعة » الممثلة لخصائص الأفراد جميعاً . في تناسق واعتدال .. الأمر الذي لا يتوافر إلا في منهج الله ..

ونستطيع أن نتجاوز – هنا – عن عهد الرق الروماني – على سبيل الاختصار في هذا البحث المجمل الذي يشير ولا يفصل – ونبدأ فقط من عهد الإقطاع .. في استعراض مجمل عام ، يناسب طبيعة هذا البحث المجمل العام .

* * *

ويجب – ابتداء – أن نميز بين الخصائص الأساسية المميزة للإقطاع بمعناه الاصطلاحي التاريخي الذي عرفته أوربا ، وتلك المظاهر الثانوية السطحية التي ربما تكون قد وجدت في انحاء أخرى من الأرض في عصور مختلفة .. فهذا التمييز ضرورة من الناحية العلمية ، ومن الناحية الشعورية كذلك .

إن نظام الإقطاع في أوربا لم يكن مجرد وجود ملكيات كبيرة ، ولكنه كان مصحوباً بخصائص هذا النظام الأساسية :

وأخص خصائص هذا النظام كانت :

١ – تبعية الفلاحين للأرض ، حيث كان وضعهم فيها كوضع آلات الزراعة وحيواناتها ، وانتقالهم – مع الأرض – إلى المالك الجديد كما تنتقل الآلات والحيوانات – ولو كانوا لا يباعون كما هو الحال في نظام الرق – ولكن تبعيتهم للأرض تحرمهم حق الانتقال منها إلى أرض أخرى ، كما تحرمهم بطبيعة الحال حق اختيار حرفة أخرى فردية مستقلة .

٢ – كما كانت إرادة السيد «الشريف» هي القانون في إقطاعيته . فهو الذي يشرع للأقنان (رقيق الأرض) وهو الذي يحدد علاقاتهم به وبالأرض ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ..

وهذا هو الاقطاع كما عرفته أوروبا وكما ثارت عليه أيضاً !

وهاتان الخاصتان تعتبران العلامتين المميزتين لهذا العهد البغيض .

وقد ظلت أوروبا ترزح تحت وطأة هذا النظام الفظيع ، الذي تهدر فيه قيمة الإنسان – ابتداء – بجعله تابعاً للأرض كالماشية وأدوات الزراعة ، ينتقل معها إلى المالك الجديد . ولا يملك أن يحس بكينونته «الإنسانية» مستقلة عن الأرض . ولا يملك أن يغادرها – ولو إلى إقطاعية أخرى . وإلا اعتبر آبقاً – بحكم القانون – ووجب القبض عليه ورده إلى الأرض التي يتبعها (وإن كان هذا القانون لم يعد ينفذ في أواخر عهد الإقطاع في الحالات التي كان المالك الذي أوى إليه الهاربون إلى إقطاعيته يرى أن من مصلحته عدم ردهم إلى سيدهم وأرضهم !) .. وتهدر فيه كرامة «الإنسان» مرة

أخرى بجعله أسير إرادة الشريف ، واعتبار هذه الإرادة هي القانون .. وليس أحط من وضع يكون فيه الإنسان خاضعاً لشريعة هي مجرد إرادة إنسان مثله .. ولو كان هو السيد الشريف !!!

ظلت أوربا تحت وطأة هذا النظام الفظيع ، حتى انساحت جموع الصليبيين في الشرق الإسلامي ، واحتكوا بالمجتمع الإسلامي ، وعرفوا عن كثب أوضاع حياة الناس فيه ، ورأوا نظاماً آخر غير ذلك النظام الفظيع .

رأوا شريعة يتحاكم إليها الناس جميعاً ، حاكمهم ومحكومهم ، غنيهم وفقيرهم ، مالكهم ومعدمهم ، صاحب الأرض والعامل فيها على السواء . شريعة ليست هي إرادة السيد صاحب الأرض ، وليست هي إرادة الأمير كذلك . ولا السلطان . إنما هي شريعة تجيئهم جميعاً من عند الله . ويتولى الحكم بها قضاة . طالما وقفوا بها في وجه الأمراء والسلاطين ، عندما كان أحدهم يهم بظلم الرعية أفراداً أو جماعات . وقد ظهر في هذه الفترة بالذات أئمة أقوياء وقفوا مرات في وجه سلاطين المماليك ، وكان لوقفاتهم صداها الذي تتناقله الجماهير في الوطن الإسلامي ، وتعرفها جموع الصليبيين الذين يحتكون بهذا المجتمع خلال قرنين من الزمان .

وعلى الرغم من كل ما كان قد وقع في المجتمع الإسلامي في هذا الوقت من انحرافات ، وعدم مراعاة لشريعة الله في بعض جزئيات الحياة .. فإن المسافة بين هذا المجتمع والمجتمع الإقطاعي الذي جاء منه الصليبيون كانت بعيدة بعيدة .

رأوا الناس أحراراً ، لا في الانتقال من مزرعة إلى مزرعة ، ولا في الانتقال من مدينة إلى مدينة ، بل في الانتقال خلال الأقطار الإسلامية في أطراف الأرض .. إذ كانت كلها وطناً إسلامياً واحداً متصلاً لا تقوم فيه الحواجز دون أفراد المسلمين – حتى ولو تعدد الأمراء والسلاطين .

ورأوا الناس أحراراً في اختيار المهن حسب مزاجهم ورغبتهم واختيارهم . لا يحد من حريتهم في هذا قيد ما .

ورأوا أصحاب الحرف يتجمعون فيما يشبه النقابات ، حيث يكون لكل حرفة (ريس) وتقوم العلاقة بين أصحاب الحرفة الواحدة على التعاون والمودة .

وكل هذه الظواهر لم يكن لها بعد وجود في المجتمع الأوروبي الإقطاعي الذي جاء منه الصليبيون .

نعم . إنه ربما وجدت بعض الملكيات الكبيرة في المجتمع الإسلامي حينذاك . ولكنها لم تكن تنشئ نظام إقطاع كالذي عرفته أوربا . لأنه لا « شريف » ولا « أقنان » ولا تبعية للأرض تلصق « الأقنان » بها ، ولا إرادة للسيد هي القانون ! بل القانون شريعة من عند الله .. وهذا لم يكن ينشئ نظام إقطاع بالمعنى الاصطلاحي الفني التاريخي لنظام الإقطاع . الذي عرفه أولئك الصليبيون .

وفي خلال القرنين اللذين اشتعلت فيهما نار الحروب الصليبية ، طرداً وعكساً ، كانت الانطباعات والتأثيرات بالمجتمع وأوضاعه تفعل فعلها في نفوس عشرات الألوف من الصليبيين الذين شاهدوه ، ومئات الألوف بل الملايين ممن وراءهم ، ممن سمعوا قصص العائدين من هناك .

وكانت تتخمر في المجتمع الأوروبي هذه الانطباعات والتأثرات ، إلى جانب العوامل المحلية الأخرى (التي يتعمد الأوربيون عامة والماركسيون خاصة أن يجعلوها وحدها هي العوامل المؤثرة) من نشأة الحرف ، والمدن التجارية ، وطبقة التجار ، والامتيازات التي حصلوا عليها في مقابل تمويل الأمراء في حروبهم الصليبية ، وفي حروبهم مع بعضهم البعض ... إلى

آخر العوامل التي أدت إلى الثورة على نظام الإقطاع .

لقد كان نظاماً جائراً فظيعاً . امتهنت فيه كرامة « الإنسان » إلى أقصى حد . ولم يكن يفرقه عن نظام الرق إلا أن رقيق الأرض فيه لا يباع ، ولا يقدم للسباع !

وكان أحد التيارات الإسلامية في الأرض ، هو الذي نخر في أساسه . ثم جاءت العوامل الأخرى المحلية فضغطت عليه ، فانهار .

وكرد فعل لإهدار الوجود الفردي والحرية الفردية ، بل لإهدار الوجود الإنساني ، قام النظام الرأسمالي على أساس من إطلاق العنان لنشاط الفرد إلى غير حد ، وللحرية الفردية من غير قيد ، ولاعتبار الصالح الفردي هو الصالح الأعلى ..

وبرزت هذه الاتجاهات في المجال الاقتصادي إلى أقصى حد ، إذ ترك كل شيء في هذا المجال لنشاط الأفراد ورغباتهم وصوالحهم ، دون أي اعتبار للمجتمع ، أو للأخلاق ، أو لأية اعتبارات أخرى يمكن أن تحد من الحرية الفردية ، أو من تحقيق الصالح الفردي ، كما يتراءى للفرد أن يحققه .

وبينما قام هذا الاتجاه في مجال الاجتماع والاقتصاد – في أول الأمر – بدور المخلّص للجماهير من قبضة الإقطاع الفظيعة ؛ وأتاح للمواهب الفردية وللنشاط الفردي أن تصل إلى قمة الإبداع والحركة والطلاقة ؛ وأن تتجه الجهود – في سبيل تحقيق الصالح الخاص – إلى استثمار كنوز الأرض ، وقوى الطبيعة للصالح البشري العام ... إلى آخر الخدمات الكثيرة التي أداها بروز النظام الرأسمالي ، كدور تقدمي بالقياس إلى النظام الإقطاعي في أوروبا ..

بينما قام هذا الاتجاه بهذه الخدمات ، وأدى للبشر هذه الخيرات ، كان عامل التطرف فيه ، وكونه رد فعل لخطأ آخر ، وعلاجاً لداء بداء جديد – أدى هذا كله إلى انطلاق السعار « الرأسمالي » الذي يبدأ من النظام الربوي .اللعين الذي صاحب نشأة النظام الرأسمالي ، وتغلغل فيه بحيث أصبح هو أساس الاقتصاد الحديث ؛ وينتهي إلى اعتبار جميع القيم الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية هراء لا معنى له إذا شاءت أن تتدخل في قواعد الاقتصاد ، وأن توقف هذا السعار المجنون ، الذي لا ينتهي إلى تضخم رؤوس الأموال والمصالح الرأسمالية على حساب الطبقات المنتجة فحسب .. ولكن يضيف إلى هذا المظهر البشع ما هو أبشع .. ذلك أن يصبح العمال والصناع والتجار ، وأصحاب المصانع أنفسهم ، مجرد أجراء للصيارفة الذين قاموا بتأسيس البنوك ، وجذبوا إليها أموال حملة الأسهم والمودعين ، ليستغلوها لصالحهم ، إذ تعود عليهم حصيلة تشغيل هذه الأموال – ما عدا النصيب الضئيل الذي يصرف لحملة الأسهم ، وللمودعين في بعض الحالات – بينما يكد العمال والصناع والتجار والمستهلكون وأصحاب المصانع أنفسهم كذلك ، للوفاء بالفوائد الربوية التي تعود في النهاية على الطغمة القليلة من الماليين الذين يمولون الصناعة والتجارة عن طريق الإقراض ، ويقبضون – وهم قاعدون – ثمرة كد الجميع في نهاية المطاف .

إن بلاء النظام الرأسمالي لا يتمثل فقط في المظهر البارز الذي يوجه إليه النقد ، وهو تسخير الشعوب والحكومات لمصالح أصحاب رؤوس الأموال .. فيجب تحديد الطبقة التي تسخر لها هذه الشعوب والحكومات . وهي طبقة مستترة وراء أكداس من النظريات الاقتصادية ، ووسائل الدعاية والتمويه ، والأساتذة الكبار والجامعات والقوانين واللوائح ، في جميع أرجاء الأرض .. طبقة المرابين .. الطبقة التي تؤسس بنوك الإقراض ، وتملك سندات التأسيس . طبقة البيوت المالية القابعة هناك في الظلام ، حيث

إليها حصيلة الجهد البشري كله .. بما فيها جهد أصحاب المصانع والتجار ، الذين يوسمون بأنهم البرجوازيون الكبار .. فالنظام الربوي هو المسؤول عن هذا البلاء . هو المسؤول عن عودة حصيلة الجهد البشري كله إلى هذه الشرذمة الصغيرة من أصحاب البيوت المالية ، ومؤسسي البنوك وحملة سندات التأسيس ..

كذلك صاحب النظام الرأسمالي الانحلال الخلقي .. أولاً تحت تأثير النظريات المختلفة الاتجاهات .. سواء نظريات الحرية الفردية التي لا يجوز أن يحدها حد أو قيد . أو نظريات حيوانية الإنسان ، ومادية الكون ، والتفسير المادي الاقتصادي للتاريخ .. وكلها – كما تقدم – منبثقة من حركة الهروب من الكنيسة ، والشرود من كل تفكير ديني على الإطلاق .

ولكن هنالك كذلك عاملاً آخر كامناً وراء هذه النظريات كلها ، هو النظام الربوي ..

إن الذي يقترض بالفائدة لكي يقيم مشروعاً من المشروعات ، لا بد أن يفكر في أربح المشروعات التي تكفل تغطية الفوائد الربوية ، وتكفل له فائضاً من الربح .. والمشروعات التي تقوم على إثارة الغرائز الجنسية وتلبيتها ، والتي تقوم على إثارة الميل إلى الترف وتلبيته .. هي أدنى المشروعات إلى الربح ، في عالم متجرد من الهواتف الدينية والخلقية ..

ومن ثم يصبح من السياسة الثابتة لأصحاب المال (الصيارفة وبيوت المال ومؤسسي البنوك وحملة السندات التأسيسية) ومعظمهم من اليهود في العالم ، كما يصبح من سياسة الكثيرين من أصحاب المشروعات الذين يقترضون من هذه المؤسسات بالربا .. أن ينشروا في المجتمع الإنساني حالة من الانهيار الخلقي ، ومن الترف ، ومن التفاهة ، ومن قذارة الاهتمامات ، تسمح بأن تروج فيه مشروعات الترفيه الجنسي في شتى صوره ، ومشروعات

الترف كذلك والمتاع إلى أقصى حد ، بدون حد من دين أو خلق ولا قيد .

وهكذا تصبح صناعة الأفلام المستهترة ، وصالات العرض المهيجة ، والصحافة الداعرة ، وتجارة الرقيق ، والخمر والمخدرات .. كما تصبح صناعة أدوات الترف والزينة وما وراءها من تقاليد المجتمع المستهتر والحفلات والسهرات ... إلى آخر مظاهر الإنحلال والترف التي تقوم عليها مئات الصناعات في العالم .. تصبح هذه كلها في خدمة الرأسمالية (أي القاعدة الرأسمالية الممولة) . وتحتاج إلى فلسفات ونظريات وأساتذة وأدباء وفنانين ومشرعين وأنظمة حكم تسمح وتحمي وتشجع هذه الصناعات . ويكون لرأس المال في هذه الأنظمة ، هذه القوة التوجيهية ، لأنه هو وحده الذي يتحكم في المجتمعات اللادينية ، مما لا يكون له حين تخضع الحياة كلها – والمال معه – لمنهج الله في الحياة . فرأس المال لا يكون له التوجيه المؤذي إلا في المجتمع الذي لا يهيمن عليه منهج الله ، حيث ينفرد رأس المال بالهيمنة . فأما حين يكون منهج الله هو المسيطر ، فإنه حينئذ سيوجه المجتمع وسيوجه المال المتداول فيه وجهة خيرة نظيفة ، ولن يسمح للمال أن يكون أداة بغي أو أداة فساد .

إنه ليس المال بذاته هو الذي يفسد حياة المجتمع . إنما هو المنهج والمذهب والنظام والتصور الذي يحكم مجتمعاً من المجتمعات ..

وليست هذه سوى لمسات سريعة جداً للحالة البشعة التي أنشأها النظام الرأسمالي – بينما كان يعالج التطرف بتطرف آخر ، ويعالج الداء بداء آخر ، ويتأرجح بين طرفي الكبت والجموح ، كالحصان الذي يجمح من شدة اللجام !

ولا نملك أن ندخل في تفصيل المتاعب الاقتصادية التي أنشأها النظام الربوي الذي قام على أساسه النظام الرأسمالي . ولا أن نتحدث عن أثر هذا

النظام في دورات الانكماش والأزمات الدورية ، وويلات البطالة والكساد التي تصاحب هذه الدورات .

ولا نملك أن ندخل في تفصيل ويلات الاستعمار التي اقتضاها النظام الرأسمالي ، في أثناء البحث عن أسواق تمد الصناعات الكبيرة بالخامات ، وفي الوقت ذاته تستهلك ما تنتجه هذه الصناعات .

كما لا نملك أن ندخل في تفصيل ويلات الاستعمار الجديد ، الذي لا يبدو في صورة الاحتلال العسكري القديمة . وإنما يبرز في صورة البحث عن أسواق لرؤوس الأموال الفائضة في الدول الرأسمالية ، والتي لا تجد لها مجالاً للعمل في بلادها بسبب التشبع الصناعي . ومن ثم تبحث عن بلاد متخلفة «تتصنع» برؤوس الأموال الأجنبية ، كي يعود على هذه الأموال الفائض الربوي . ولا تبقى معطلة في بلادها التخمة . هذا الاستعمار الذي يتصارع الآن في إفريقية بالذات ، على مرأى منا ومسمع ، في كل مكان .

لا نملك الدخول في تفصيلات هذه النواحي المتعددة لبلاء النظام الرأسمالي . لأن هذا أمر يطول ، ولا يتفق مع طبيعة هذا البحث المجمل . ويمكن الاجتزاء بالإشارة إليه في صدد تقدير التخبط في خطوات البشرية ، في مجال النظم الاقتصادية والاجتماعية . وهي شاردة من الله ، ومن منهجه للحياة .

* * *

ثم تتمثل الطامّة الكبرى في «النظم الجماعية» التي طبقتها أوربا في الشرق أو في الغرب ، على اختلاف أسمائها وأشكالها ، والتي جاءت كرد فعل للجموح الشارد في «النظم الفردية الرأسمالية» .

إنه جموح جديد ينشأ من رد الفعل لجموح قديم . وداء جديد تعالج به البشرية من داء قديم . وتحطيم لخصائص الإنسان الأساسية في جانب ، لإنقاذه من تحطم خصائصه الأساسية في جانب آخر !

وكلها تجتمع عند دعوى تمليك الموارد العامة ووسائل الإنتاج إما للشعب كالنازية وإما لطبقة من الشعب كالماركسية . وحكاية تمليك هذه الموارد والوسائل للشعب أو لطبقة من الشعب ، في تلك الأنظمة ، حكاية لا يدري أحد كيف يمكن تحقيقها عملياً ..

وفي هذا يقول «كاريوهنت» المجري في بحثه : «الشيوعية نظرياً وعملياً» ..

«الشيوعية – وفقاً للنظرية الكلاسيكية على الأقل – ترمي إلى إقامة مجتمع بلا طبقات ، يكون فيه جميع وسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل ، ملكاً للجمهور ، وتختفي منه الدولة ، التي تعد أداة إرغام واضطهاد .. ولكن تقوم مع هذا ، بين الثورة التي تلغي النظام الرأسمالي وبين هذا المجتمع الشيوعي ، فترة انتقال تعرف باسم «ديكتاتورية الطبقة الكادحة» وهذه هي المرحلة التي تزعم روسيا أنها تمر بها الآن .. ومن المهم أن نلاحظ أن الروس يسمونها «الاشتراكية» (لا الشيوعية) . وأن الجمهوريات التي تؤلف الاتحاد السوفيتي يطلق عليها : «اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية» (لا الشيوعية) ، لأن الشيوعية مرحلة أعلى ، ما زالت في المستقبل . والمعروف أن مقياس المجتمع الشيوعي هو أن يكون خاضعاً لمبدأ : «من كل إنسان حسب قدرته ، ولكل إنسان حسب حاجته» . ولكن إذا أخذنا ما نادى به ماركس في البداية ودأب ستالين على تكراره ، وجدنا أن مساواة كهذه مستحيلة في الدولة الاشتراكية . ولهذا يجب أن

يتحكم فيها مبدأ «من كل إنسان بحسب قدرته ، ولكل إنسان بحسب عمله» .

... «وحذا لينين وستالين حذو ماركس وأطلقا تسمية «الاشتراكية» على النظام الجديد ، الذي سينشأ على أنقاض الرأسمالية . ولهذا لم ترد في الدستور السوفييتي الذي صدر في ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٦ أية إشارة إلى «الشيوعية» إلا في المادة ١٢٦ التي أشارت بالتحديد إلى «الحزب الشيوعي» ، ووصفت الاتحاد السوفيتي بأنه «دولة اشتراكية للعمال والفلاحين» .. وقد قال ستالين في التقرير الذي أصدره عن الدستور في ٥ ديسمبر : إن الشيء الوحيد الذي تم تحقيقه إلى الآن هو «الاشتراكية» ورفض تعديلاً بإدراج هذه العبارة في الدستور ، وهي «ان الغاية النهائية للحركة السوفييتية هي خلق مجتمع شيوعي بحت» وقال : إنه ليست لهذه العبارة صلة مباشرة بالدستور ، الذي يسعى إلى مجرد تدشين المكاسب التي تم الظفر بها فعلاً ..

«وسينكر الكثيرون من الاشتراكيين – بلا ريب – حق ستالين في وصفه هذا للنظام السياسي والاقتصادي السوفييتي الحالي . ولكننا نجد فيما يتعلق بالغايات التي يسعون إلى تحقيقها ، أن عبارتي «الشيوعية» و «الاشتراكية» قابلتان للتعديل والتغيير في الواقع . وهو أمر يمكن لأي إنسان أن يكتشفه ، إذا راجع قاموس «أكسفورد» الإنجليزي .. فإن جوهر الاثنتين هو أن وسائل الإنتاج يجب أن تكون ملكاً للشعب .. ولكن لم يتسن لإنسان إلى الآن – أن يكتشف كيف يمكن للشعب السيطرة على هذه الوسائل . ولهذا أسند أمر الإشراف عليها باسم الشعب إلى الدولة أو أي هيئات أخرى تعين لهذا الغرض . وهكذا أصبحت الملكية الشعبية تعني في الواقع رأسمالية الدولة . وكانت الاشتراكية السوفييتية أعظم تعبير قوي مناسب لها . ولهذا فإنه من الخير لنا قبل البحث في الأساس النظري للشيوعية ، أن نذكر أن الهدف النهائي لها هو نفسه هدف الاشتراكية . وأن أي خلافات بين الاثنتين

إنما تكون على الوسيلة لا الغاية فالاشتراكيون يرون أنهم يستطيعون إدخال نظامهم والمحافظة عليه بوسائل ديمقراطية ، ولكن الشيوعيون يعتقدون أن ذلك مستحيل » .

والكارثة الفادحة في الأنظمة الجماعية ، التي عرفتها أوربا في الشرق وفي الغرب – على اختلاف مسمياتها وأشكالها – هي محاولة إلغاء وجود الفرد ، في حين أن الفردية عميقة في التكوين البيولوجي وبالتالي في التكوين العقلي والنفسي للإنسان . واستخدام هذه الفردية بأقصى طاقتها في إطار يوجهها إلى خير المجموع هو النظام المناسب لفطرة الإنسان . أما محاولة كبحها وقتلها بشتى الوسائل ، في تلك الأنظمة ، فهي عملية تدمير تامة للجهاز الإنساني .

ومن مقتضيات هذه « الفردية » ألا يكون التنظيم الاقتصادي بحيث يضع كل شيء في يد الدولة فتصبح – إلى جوار سلطاتها السياسية والقانونية – هي المالك الوحيد لموارد الإنتاج وأدواته ووسائله . وهي التاجر الوحيد الذي يستورد ويصدر ويبيع للأفراد . وهي « المفكر » الوحيد كذلك لأنها لا تسمح بالرأي المخالف ، ولا بالمناقشة لمبادئ الدولة وأفكارها ووسائلها .. والخصائص الإنسانية العامة والخصائص الفردية الخاصة ، كلها مهددة بالدمار في مثل هذه الأحوال .

ومن حسن الحظ أن الفطرة البشرية لا تخضع طويلاً لمثل هذه المحاولات الجائرة على الطبيعة البشرية ، والكينونة الإنسانية . ومن ثم تضغط حتى تسحق هذه المحاولات شيئاً فشيئاً . وقد اضطرت الأنظمة الشيوعية (أو الاشتراكية كما تسمي نفسها) إلى التعديلات المتوالية ، التي هي في الحقيقة « عدولات » عن كثير من الأسس الرئيسية في المذهب . لأن ضغط الفطرة

كان أقوى من أن تصمد له كل أجهزة الدولة وضغطها الساحق .

* * *

وحسبنا هذه الإشارات إلى التخبط بين طرفي المبالغة في كل اتجاه ، وفي كل نظام ؛ والترنح في خطوات البشرية ذات اليمين وذات الشمال ؛ وما صاحبه من مذابح رهيبة ، ذهب فيها الملايين من البشرية ، ومن مذابح كذلك للأخلاق والآداب الإنسانية ، ارتكست فيها الإنسانية في الوحل .

وقد رأينا – في اختصار وإجمال – هذه الظواهر في الجوانب الثلاثة الرئيسية لحياة الإنسان متمثلة في النظرة إلى الإنسان وفطرته واستعداداته . وفي النظرة إلى المرأة وعلاقات الجنسين . وفي النظرة إلى الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية .

وكانت هذه هي الضريبة الفادحة التي دفعتها أوروبا – ومن ورائها البشرية كلها مع الأسف – لشرودها عن الله ومنهجه في الحياة ..

حضارة لا تلائم الإنسان

إن الإبداع المادي في هذه الأرض على يد الإنسان .. فوق أنه ضرورة لحياته ولنمو هذه الحياة ورقيها .. هو في الوقت ذاته وظيفة أساسية له ، يحقق فيها وجوده ، وينمي فيها ذاتيته ، ويدرب فيها استعداداته الكامنة ، التي أودعها الله كينونته الفريدة المعقدة المركبة .. فهو وحده من بين سائر الأحياء الذي يؤدي هذه الوظيفة عن وعي وقصد وإرادة .. ثم هو – بعد هذا وذلك واجب يحقق به غاية وجوده الكبرى : وهي الخلافة عن الله في الأرض : «إني جاعل في الأرض خليفة» .. ويحقق بها العبادة لله عن طريق هذه الخلافة ، والعمل فيها باسم الله ، ابتغاء رضوان الله : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»(١) .

ولكن هذا الإبداع المادي – بكل مدلولاته – من فلاحة الأرض ، إلى استخراج كنوزها واستخدام طاقاتها ، إلى إنتاج المواد الاستهلاكية للاستمتاع بطيبات الحياة ، إلى ريادة الفضاء الكوني وما قد تتيسر ريادته من الكواكب . هذا الإبداع بكل مدلولاته يجب أن يكون في خدمة «الإنسان» ، فهكذا أراد له خالقه ، وهو يعلن أنه سخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه .. وأن يكون ملحوظاً في هذا الإبداع وفي بناء الحضارة التي تقوم عليه ، تنمية خصائص «الإنسان» : خصائصه كجنس يفترق عن المادة ويفترق عن الحيوان ، وخصائص أفراده الذين يؤلف

---

(١) يراجع تفسير سورة الذاريات في كتاب : «في ظلال القرآن» .

كل واحد منهم عالماً خاصاً – كما أسلفنا – بفرديته البيولوجية والنفسية والعقلية .. وألا يكون في طرائق الإبداع المادي ولا في بناء الحضارة التي تقوم عليه ، ما يناقض هذه الخصائص أو يدفنها ، أو يعوق نموها ، أو يحطمها ؛ ولا أن يهينها كذلك ويحقرها ؛ ولا أن يجعل دور الإنسان في هذه الأرض دوراً ثانوياً أو تابعاً للإبداع المادي ، بأي حال من الأحوال .

وليس هنالك تعارض إطلاقاً بين أن يظل « الإنسان » سيد هذه الأرض ، وأن تنمى خصائصه الجنسية والفردية ، وتؤكد شخصيته كجنس وكفرد ، وبين أن ينمو الإبداع المادي ويتجدد ويترقى ..

وليس الأمر أنه ليس هنالك تعارض – فحسب – بل هنالك تناسق بين هذا وذلك حين تستقيم النظرة إلى الإنسان ، ومركزه في هذا الوجود ، ودوره في هذه الأرض ، وخصائصه التي زود بها من لدن خالقه العظيم ، وواجبه الذي كلفه والذي خلق من أجله ..

ولكن صانعي هذه الحضارة الحديثة – ولو أنها حلقة من حلقات الحضارة الإنسانية غير منفصلة عنها في جذورها العميقة – لم يكن لديهم العلم بحقيقة هذا الإنسان وخصائصه . كما أنه لم تكن لديهم الرغبة في احترامه وتكريمه .

لم يكن لديهم العلم ، لأن هذه الحضارة بدأت ونمت خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، بينما الجهالة المطلقة بالإنسان لا تزال قائمة حتى اللحظة . وليس هنالك ما هو صحيح وثابت عنه إلا ما أخبر به عنه خالقه العظيم .. والحضارة المادية الحديثة نشأت في جو الشرود من الكنيسة ، والنفور من ظلها ، ومن ظل الدين .. كل الدين ..

ولم تكن لديهم الرغبة ، لأن أية محاولة لتكريم الإنسان ، كانت

ستذكّر بمركزه الذي يعطيه الدين له .. وكل شيء كان جائزاً في أوربا إلا أن تجيء سيرة الدين . وأن تكون لهذا الدين أية علاقة بأوضاع الإنسان « المدنية » وبالنظم الاجتماعية والاقتصادية ، وبعلاقات العمل وارتباطاته وطرائقه الفنية ! بل كانت تتوافر عندهم الرغبة المضادة والحرص البالغ ، على تحقير الإنسان ، وتدنيسه وتلويثه ، وإثبات حيوانيته وقذارته الجنسية من جهة ؛ وضآلة دوره بإزاء المادة وقوانينها الحتمية ، والاقتصاد وإرادته القاهرة من جهة أخرى ، كأنما هم أعداء لهذا « الجنس الإنساني » حريصون – في شماتة ظاهرة – على إبرازه يتلبط في المستنقع ويتلطخ بالأوحال . كل ذلك ليقولوا للكنيسة : خذي إلـٰهك ودينك ، وخذي معهما إنسانك هذا الذي تزعمين أن الله قد نفخ فيه من روحه واذهبي بعيداً عنا وعن حياتنا الواقعية ! ! !

وأيًّا ما كانت الملابسات التي أدت إلى هذه المأساة ، فإن الحقيقة الواقعة ، أن هذه الحضارة الحديثة – ولو أنها قامت ابتداء على أسس الاتجاهات التجريبية العلمية التي اقتبستها أوربا من الأندلس ومن الشرق الإسلامي ، النابعة ابتداء من التوجيهات القرآنية لتدبر النواميس واستغلال الطاقات والمدخرات في الأرض ، ومن روح الإسلام الواقعية الإنسانية ، إلا إنها حين انتقلت إلى أوربا لم تنتقل بجذورها الفلسفية ، إنما انتقلت علوماً وطرقاً فنية ، ومناهج تجريبية . وصادفت ذلك « الفصام النكد »[(١)] بين الدين والنهضة الحضارية . ومن ثم لم يلحظ في بنائها هذا « الإنسان » المفروض أنه صانعها ، وأنها من أجله صنعت . وكذلك أصبحت لا تلائم هذا « الإنسان » بل تسحق خصائصه الأساسية التي تجعل منه هذا

(١) يراجع بتوسع فصل « الفصام النكد » في كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

الكائن الفذ الفريد في الكون ، والتي بدونها لا يملك هذا الكائن أن يؤدي دوره . كما أن إغفال بعضها في أي نظام اجتماعي أو اقتصادي ، وفي أية حضارة ، من شأنه أن يحدث الاختلال في الكينونة البشرية ، ويقضي لا على الجوانب التي أغفلت فحسب ، بل كذلك على الجوانب الأخرى ، نظراً لأن الجهاز الإنساني كل مركب متناسق ، يعمل في الواقع كوحدة في كل نشاط يبذله ، ولا يوجد مجزءاً إلا في عالم البحوث العقلية والمعملية .

* * *

ونعود إلى الاقتباس من تقريرات الدكتور ألكسيس كاريل عن هذه الحضارة وعن نشأتها ، وعن عدم ملاءمتها للإنسان ، وعن الخصائص الإنسانية التي تهملها أو تحطمها :

« إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ...(ص ٣٨) .

« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالاً تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية . إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ : الحد الأقصى من الإنتاج بأقل قدر من التكاليف ، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال[1] ..

(١) والحال لا يختلف من ناحية أثر المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعامل إذا كان الإنتاج ملكاً للشعب أو لطبقة منه – أي للدولة – إذا ظلت طريقة العمل واحدة .

وقد اتسع نطاقها دون أي تفكير في طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ، ودون أي اعتبار للتأثيرات التي تحدثها طريقة الحياة الصناعية التي يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم » . (ص ٤٠)

« وهؤلاء النظريون يبنون حضارات ، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان ، إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهوّلة للإنسان . إن نظم الحكومات التي أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم عديمة القيمة .. فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين ، تنطبق فقط على الرجال الجامدين (غير الأحياء أو المتحركين) . فيجب أن نفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة . فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية » ... (ص ٤٣)

« يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء . ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب في العالم الذي ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته .. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية ... فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا .. إننا قوم تعساء . لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً .. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها . ولكنها لا تدرك ذلك . إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها . وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات – التي سبقتها – أوجدت أحوالاً معينة للحياة ، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة . وذلك لأسباب لا تزال غامضة » .. (ص ٤٣ – ٤٤) .

«ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة العصرية ، فقد أخفقت هذه الحضارة في إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجراءة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تتعثر فيه . لأن بني الإنسان لم ينموا بالسرعة التي تثب بها الأنظمة من عقولهم . ومن ثم فإن أكثر ما يعرض الأمم العصرية للخطر هو النقص العقلي والأدبي الذي يعاني منه الزعماء السياسيون» ... (ص ٣٧) .

«إن العقل . وقوة الإرادة والأخلاق ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً . بيد أن الإحساس الأدبي أهم بكثير من العقل . وحينما ينعدم هذا الإحساس من أحد الشعوب ، فإن كيانه الاجتماعي كله يبدأ في الانهيار البطيء» ... (ص ١٦٠) .

«إن الحضارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي . وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بني الإنسان – إلى حد كبير – للنقائص الموجودة في جوهم السيكلوجي . إذ ان تفوق المادة ومبادئ «دين الصناعة» حطمت الثقافة والجمال والأخلاق» ... (ص ١٨٤) .

«يكاد المجتمع الحديث أن يهمل الإحساس الأدبي إهمالاً تاماً . بل لقد كبتنا مظاهره فعلاً ... فقد أشربنا جميعاً الرغبة في التخلص من المسؤولية . أما أولئك الذين يميزون الخير من الشر ، ويعملون ويتحفظون ، فإنهم يظلون فقراء ، وينظر إليهم بضيق وتأفف . والمرأة التي أنجبت عدة أطفال وأوقفت نفسها على تعليمهم ، بدلاً من الاهتمام الخاص بنفسها ، تعتبر ضعيفة العقل . وإذا أدخر رجل بعض المال لزوجته وتعليم أولاده ، سرق منه هذا المبلغ بواسطة الماليين أصحاب المشروعات أو أخذته الحكومة» ... (ص ١٨٥) .

«إن المادية البربرية التي تتسم بها حضارتنا ، لا تقاوم السمو العقلي

فحسب . بل إنها تسحق أيضاً الشخص العاطفي ، واللطيف والضعيف ، والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال » ... (ص ٣٧١) .

«إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفي ، أو الجمالي ، أو الديني ، يخلق أشخاصاً في المرتبة الدنيا ، ذوي عقول ضيقة مريضة . وبالرغم من أن التعليم العقلي يهيأ الآن لكل فرد ، إلا أننا ما زلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص في كل مكان .. وعلى كل حال فإن الثقافة العالية ليست ضرورية لتخصب الشعور بالجمال ، والإحساس الديني ، ولتنتج فنانين وشعراء ، ورجال دين ، وجميع أولئك الذين يتأملون مختلف وجوه الجمال .. وهذا الذي نقوله صحيح أيضاً بالنسبة للإحساس الأدبي وأصالة الحكم .. وجميع ألوان النشاط هذه تكاد تكون كافية في حد ذاتها .. إنها لا تحتاج إلى الاقتران بالذكاء الحاد لكي تهيئ للإنسان استعداده للسعادة ، فيجب أن يكون نموها هو الهدف الأسمى للتعليم لأنها تهيئ التوازن للفرد . إنها تجعل منه حجراً صلباً في الصرح الاجتماعي ، ولا شك في أن الإحساس الأدبي ضروري أكثر من الذكاء بالنسبة لأولئك الذين يعملون على زيادة الحضارة الصناعية (ص ١٦٨ — ١٦٩) .

«ويظل تذوق الجمال كامناً (مكبوتاً) في أغلب الأفراد ، لأن الحضارة الصناعية أحاطتهم بمناظر قبيحة كريهة خشنة . ولأننا تحولنا إلى آلات . فالعامل يقضي حياته ، وهو يكرر الإشارات والحركات نفسها آلاف المرات في كل يوم .. إنه يصنع قطعاً مفردة فقط ، ولكنه لا يصنع وحدة كاملة مطلقاً . أي انه غير مسموح له باستعمال عقله . إنه الحصان الأعمى الذي يدور في دائرة واحدة طول النهار ليخرج الماء من البئر . إن الصناعة تحرم على الإنسان استخدام وجوه نشاطه العقلي التي يمكن أن تجلب له قسطاً من المتعة كل يوم .. لقد ارتكبت المدنية الحديثة خطأ كبيراً دائماً

بتضحية العقل في سبيل المادة . خطأ تزداد خطورته يوماً بعد يوم لأن أحداً لا يثور ضده ، ولأن الجميع يتقبلونه بسهولة كما يتقبلون الحياة غير الصحية في المدن الكبرى والسجن في المصانع . ومع ذلك فإن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائي بالجمال في عملهم ، أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك .. إن الصناعة – بشكلها الحالي – حرمت العامل من الابتداع والجمال . وتعزى خشونة حضارتنا وكآبتها – ولو جزئياً – إلى الكبت الذي نعاني منه في حياتنا اليومية ، التي لا تشتمل إلا على أبسط أشكال الاستمتاع بالجمال» (ص ١٦١ – ١٦٢) .

«يتجاهل المجتمع العصري الفرد ، فهو لا يحسب حساباً إلا «لبني الإنسان» فقط . إنه يؤمن بحقيقة «الكونيات» ويعامل الناس كخلاصات . ولقد أدى اضطراب الأمر فيما يتعلق بالفرد ، وببني الإنسان ، إلى وقوع المدنية الصناعية في غلطة جوهرية . وهي معاملة الناس على أساس قواعد مرسومة . فلو أننا كنا جميعاً متساوين لأمكن أن نربى ونعيش ونعمل في قطعان كبيرة أشبه بقطعان الأغنام . بيد أن لكل منا شخصيته الخاصة ولا يمكن أن يعامل كرمز» ... (ص ٣١٨) .

«لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً . ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة ، حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن ، أو مطامعهن الاجتماعية ، أو مباذلهن ، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية ، أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما ... وهكذا يضيعن أوقاتهن في الكسل . إنهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار ، فيتعلم منهم أموراً كثيرة .. إن الكلاب الصغيرة التي تنشأ مع أخرى من نفس عمرها في حظيرة واحدة ، لا تنمو نمواً مكتملاً كالكلاب الحرة التي تستطيع أن تمضي في إثر والديها . والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال

الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء . لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقاً للقوالب الموجودة في محيطه . إذ انه لا يتعلم إلا قليلاً من الأطفال الذين في مثل سنه . وحينما يكون مجرد وحدة في المدرسة ، فإنه يظل غير مكتمل . ولكي يبلغ الفرد قوته الكاملة ، فإنه يحتاج إلى عزلة نسبية ، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة » ... (ص ٣١٨ – ٣١٩) .

« إن إهمال مؤسساتنا الاجتماعية للفردية مسؤول أيضاً عن ضمور الراشدين . لأن الإنسان لا يتحمل – دون أضرار – طريقة الحياة ، وتشابه العمل السخيف المفروض على موظفي وعمال المكاتب والمصانع ، وعلى جميع من يساهمون في الإنتاج الضخم » ... (ص ٣١٩) .

* * *

ويختم الرجل هذه التقريرات التي اقتطفنا اليسير منها ، والتي تتناثر ، في كتابه كله ، وتتجمع عند إحساس واحد : هو الإحساس بخطر هذه الحضارة على « الإنسان » ومقوماته الذاتية ، وخصائصه الإنسانية .. يختمها بهذا التقرير الذي يحمل طابع الإنذار . والذي – مع أنه يصدر عن « عالم » – يشبه صرخات الإنذارات الدينية للعصاة :

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها المجتمع العصري .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره ، وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها « التكنولوجيا » وأن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله . وأن العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن المسؤولون . لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع .. **لقد نقضنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى . الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً .. إن مبادئ « الدين العلمي » والآداب**

الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو «الحقيقة البيولوجية» .. فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تُستأذن في ارتياد الأرض المحرمة .. هي إضعاف السائل .. ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار ، لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا فقبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر .. ولقد أصبح الفرد ضعيفاً ، متخصصاً ، فاجراً ، غبياً ، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته» (ص ٣٢٢) .

ثم يعقب هذا الإنذار بصيحة أخرى فيما ينبغي عمله في فصل طويل في كتابه بعنوان : «إعادة إنشاء الإنسان» وفيه يقول : —

«يجب علينا أن نعيد إنشاء الإنسان — في تمام شخصيته — الإنسان الذي أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة .. كذلك يجب أن يحدد الجنسان مرة أخرى . فيجب أن يكون كل فرد إما «ذكراً» وإما «أنثى» فلا يظهر مطلقاً صفات الجنس الآخر العقلية وميوله الجنسية وطموحه . وبدلاً من أن يشبه الآلة التي تنتج في مجموعات يجب على الإنسان — بعكس ذلك — أن يؤكد وحدانيته .. ولكي يفيد تكوين الشخصية يجب أن نحطم هيكل المدرسة ، والمصنع والمكتب ، وأن ننبذ مبادئ الحضارة التكنولوجية نفسها» ... (ص ٣٦٨) .

ومن قبل يقول في تقديمه لكتابه إنه «**كذلك كتب لأولئك الذين يجدون من أنفسهم شجاعة كافية ، ليدركوا — ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية — بل أيضاً .. ضرورة قلب الحضارة الصناعية ، وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري**» ... (ص ١٢) .

* * *

هذه المقتطفات توسعنا فيها — كما توسعنا في المقتطفات التي نقلناها عن دكتور كاريل في فصل «الإنسان ذلك المجهول» — عن عمد بوصفها شهادة

من رجل أول صفاته أنه «عالم» دارس لموضوعه ، متمكن منه . ثم هو من الناشئين في كنف هذه الحضارة التي يثور عليها هذه الثورة ، ومن المؤمنين بالعلم ، الذي يعلن عن عجزه وقصوره هذا الإعلان ..

وهذه المقتطفات – وحدها – تكفي للدلالة العميقة على أن هذه الحضارة «حضارة لا تلائم الإنسان» . لأنها قامت دون معرفة بطبيعته ، وسارت في طريقها دون اعتبار لخصائصه ، ودون اعتبار كذلك لما تنزله به من ويلات .

وفي الطريق أهدرت خصائصه كجنس ، وأهدرت خصائصه كفرد ، وأهدرت خصائص الذكورة والأنوثة .. في سبيل توفير إنتاج ضخم ، تعود أرباحه إلى عدد محدود من الجشعين ، وفي أحسن الحالات في سبيل تيسيرات مادية ورفاهية مشكوك – على الأقل – فيما إذا كانت ذات فائدة حقيقة للإنسان ، ومقطوع بدون شك بأنها لا تساوي ما أهدر في سبيلها من «إنسانية الإنسان» وخصائصه كجنس ، ومن إهدار خصائص الفردية الواضحة فيه ، ومن إهدار خصائص المرأة والرجل والأسرة والطفل . وكل مقومات الحياة .

وليست هذه كل مآخذنا على هذه الحضارة ، ولا على الحياة التي تقوم عليها . وكذلك ليست هذه زاوية نظرتنا إليها تماماً . فهناك اختلافات في تشخيص «الداء» أو في «تكييف الموقف» بيننا وبين الرجل – كما سنبين في الفصل قبل الأخير من هذا الكتاب – كما أن الاختلافات بيننا وبينه تكثر وتتسع عند «وصف الدواء» وطريقة العلاج .

فالرجل محكوم في تفكيره كله – على الرغم من سعة أفقه ورحابة نفسه وإخلاصه العلمي – بتاريخ بيئته الحضارية ، وبرواسب ووراثات فكرية وشعورية وتاريخية ، لا يملك الخلاص منها . مهما بدا له أنه تحرر من كل هذه الضغوط .

ونذكر على سبيل المثال حديثه عن كبت هذه الحضارة للنشاط الديني للأفراد الذين يعيشون في ظلها ، وأثر هذا الكبت في خلق أشخاص في المرتبة الدنيا .

إن صورة معينة من صور «النشاط الديني» هي التي تخايل له في كل حديثه المتفرق في الكتاب عن هذا الجانب . صورة مزاولة العقيدة مزاولة روحية بحتة . كما يزاول الفرد نشاطه الفني والجمالي والأدبي . وهو يلحق النشاط الديني بهذه الألوان من النشاط ، بوصفه واحداً منها ..

هذه الصورة مستمدة من التصورات الدينية كما هي سائدة في أوروبا ، باعتبار الدين نشاطاً روحياً فردياً يتمثل في الصلاة والدعاء والمناجاة ، والتصوف إلى آخر صور النشاط الفردي (الروحي) للعقيدة ..

وهو يعيب على الحضارة الصناعية كبتها لهذا النشاط في هذه الصورة .

وعلى الرغم من شفافية شعوره بهذا الجانب ، ورفرفة روحه وهو يتحدث عنه ، وتجاربه الذاتية في هذا الحقل ..

على الرغم من هذا كله فهو لا يتمثل الدين – كما نتمثله نحن – منهج حياة كـ لـ .. هذا النشاط الذي يصفه جانب واحد من جوانبه .. وهو منهج يسيطر على هذا النشاط «الروحي» كما يسيطر على النشاط الفني والجمالي والأدبي .. كما يسيطر أيضاً على النظام الاجتماعي والاقتصادي ، والحضاري كله .. فنه تنبع وإليه ترجع ، كل هذه الألوان من النشاط ، في كل جانب من جوانب الحياة .

وجناية الحضارة الراهنة ، وسبب فسادها الأساسي ، وإهدارها للقيم الإنسانية والخصائص الإنسانية ، والمقومات الفردية ... وكل ما يدمغها به دكتور كاريل بحق ، يكمن في رفضها ابتداء أن يكون للدين – بوصفه

منهجاً للحياة من عند الله – هذه الاختصاصات وهذا السلطان . أي رفضها لألوهية الله سبحانه . هذا الرفض المتمثل في اتخاذ مناهج للحياة غير منهجه ، ولو لم تعلن رفضها لألوهية الله جهراً – كالبلاد الشيوعية – فاتخاذ مناهج من صنع البشر هو رفض لألوهية الله قطعاً .

وهذا الرفض سابق على قيام هذه الحضارة . وله أسبابه الخاصة في التاريخ الأوروبي من ناحية ، وفي تاريخ النصرانية في أوروبا من ناحية أخرى . وله ما يفسره كذلك[1] . وبسبب هذا الرفض القديم – منذ أيام النهضة – وارتداد أوروبا إلى الوثنية الرومانية . قامت الحضارة الحديثة على قاعدة لا دينية .. ومن هذه الثغرة جاءتها كل الآفات ، وجنايتها الحقيقية على « الإنسان » تنبع كلها من هذا المصدر الخبيث . وإهدارها للقيم الإنسانية ، والخصائص النوعية والفردية ، مرده كله إلى هذا المنبت النكد .

وفي هذا « التشخيص » نختلف كل الاختلاف مع دكتور كاريل . نختلف في أننا نبدأ من الجذور العميقة ، بينما يبدأ هو من أحد الفروع وهو « تخلف علوم الإنسان عن علوم المادة » وفي أننا ندرك حدود النشاط الديني التي تكبتها هذه الحضارة في مداها الواسع الشامل لكل جانب من جوانب الحياة الإنسانية .

ومن ثم نختلف في وصف العلاج .. على ذات المستوى .

ولكن هذا ليس مكانه هذا الفصل فسنعالجه في الفصل قبل الأخير عند اقتراح « طريق الخلاص » .

---

(١) يراجع فصل « الفصام النكد » في كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

وحسبنا هنا أن نشير إلى أصل الفساد في منابت شجرة الحضارة الراهنة ، إلى جانب الظواهر المتنوعة التي عرضها دكتور كاريل في إدراك سليم ، وإخلاص أكيد في كتابه القيم . بوصفه أحد العلماء الكبار ، الذين يعتمدون على «العلم» وحده في الملاحظة والتشخيص والعلاج .

عقوبة الفطرة

لم يكن بد ، وقد شرد الإنسان عن ربه ومنهجه وهداه .. وعبد الإنسان نفسه واتخذ إلٰهه هواه . وجهل الإنسان نفسه كذلك وراح يخبط في التيه بلا دليل . وأقام منهج حياته على قواعد من هذا الجهل ومن ذلك الهوى . واعتدى على فطرته التي فطره الله عليها في حموة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه .

لم يكن بد وقد رفض الإنسان تكريم ربه له ، فاعتبر نفسه حيواناً — وقد أراده الله إنساناً — وجعل نفسه آلة — وقد أراده الله مهندساً للآلة . بل جعل الآلة إلٰهاً يحكم فيه بما يريد . وجعل المادة إلٰهاً يحكم فيه بما يريد . وجعل الاقتصاد إلٰهاً يحكم فيه بما يريد — وقد أراد له ربه أن يكون سيد المادة ، وسيد الاقتصاد . ولكنه رفض هذا التكريم كله لينجو فقط من الكنيسة ، ويشرد من إله الكنيسة !

لم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيواناً لطيفاً — كما أن الرجل حيوان خشن — غاية الالتقاء بينهما اللذة ، وغاية الاتصال بينهما المتاع . ونسي أن الله يرفع هذه العلاقة ويطهرها ويزكيها ، وينوط بها امتداد الحياة من جهة ، وترقية الحياة من جهة أخرى ، ويربط بها عجلة التمدن الإنساني ، ويجعل من الأسرة محضن المستقبل ، ويجعل من المرأة حارسة الإنتاج النفيس .. نتاج المادة الإنسانية .. ويصونها من التبذل كي لا تكون مجرد أداة لذة . ويصونها من الاشتغال بإنتاج المواد في المصنع ، وهي في الأسرة تنتج وتحرس مادة « الإنسان » .

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه « الإنسانية » ليحصر طاقته في الإنتاج المادي ؛ وأقام حياته كلها على أساس مادي ، وتصور مادي ؛ وكبت الجوانب الحية المرفرفة اللطيفة في حسه ، والتي وهبها الله له لأنه « الإنسان » الخليقة الفذة في هذا الكون ، التي تشمل المتناقضات كلها في تناسق بديع .

لم يكن بد وقد أقام الإنسان نظامه على الربا ، ليكد القطيع البشري كله في خدمة بضعة آلاف من مؤسسي البيوت المالية والبنوك المرابين ، تعود إليهم حصيلة كد البشرية في أقاصي الأرض ، وهم قابعون وراء المكاتب الفخمة ، والنظريات الاقتصادية ، وجميع أجهزة التوجيه والإعلام !

وفي النهاية .. لم يكن بد وقد اتخذ الإنسان له آلهة من دون الله ؛ فاتخذ من المال إلٰهاً ، ومن الهوى إلٰهاً ، ومن المادة إلٰهاً ، ومن الإنتاج إلٰهاً ، ومن الأرض إلٰهاً ، ومن الجنس إلٰهاً ، ومن المشرعين له آلهة يغتصبون اختصاص الله في التشريع لعباده ، فيغتصبون بذلك حق الألوهية على عباد الله .. كل هذه الآلهة اتخذها وعبدها ، ليهرب من الله ويستنكف عن عبادته ! ! !

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كله بنفسه أن تحل به عقوبة الفطرة ، يؤدي ضريبة المخالفة عن ندائها العميق .. وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة ..

وقد كان ..

كان .. وأداها من نفسه وأعصابه . ومن بدنه وعافيته . ومن سعادته وطمأنينته . ومن مواهبه وخصائصه . ومن دنياه وآخرته .

أداها – وفي الأمم التي بلغت ذروة الحضارة المادية بالذات – تناقصاً في النسل يهدد بالانقراض . وتناقصاً في الخصائص الإنسانية يوحي بالنكسة إلى البربرية . وتناقصاً في الذكاء والمستوى العقلي يهدد بانهيار العلم الذي قامت عليه الحضارة ، وبانهيار الحضارة ذاتها في النهاية .

وظهرت آثار الكبت للطاقات الأخرى التي لا تحتاج إليها الصناعة بطرائقها الحاضرة ؛ وآثار القلق على المستقبل في المجتمع المادي المتناحر ، وآثار الخواء الروحي الذي تفرضه الفلسفات والأوضاع في المدنية الكافرة .. ظهرت آثارها في صورة الأمراض العصبية والعقلية والنفسية والعته والجنون والشذوذ والانحراف والجريمة .

وظهرت آثار التوجيه المتواصل إلى حيوانية الإنسان وماديته وسلبيته ، وإطلاق شهواته وغرائزه من كل ضابط .. ظهرت في صورة الانحلال ، واللامبالاة ، والسلبية ، وقبول الديكتاتوريات ، وحياة القطيع ، التي لا هدف لها إلا السفاد واللقاح والطعام والشراب .

وكتب على البشرية كلها أن تؤدي الضريبة فادحة صارمة ثقيلة : حروباً رعيبة ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين . وأزمات تلو أزمات .. أزمات إذا قل الإنتاج وأزمات إذا زاد الإنتاج . أزمات إذا مال الميزان التجاري إلى العجز وأزمات إذا مال الميزان التجاري إلى الزيادة . أزمات إذا نقصت المحصولات وأزمات إذا فاضت المحصولات . أزمات إذا قل النسل وأزمات إذا زاد النسل . وتخبط من هنا وتخبط من هناك . وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار . وضغط على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم ، فيخرون أمواتاً بالسكتة وتفجر المخ ، أو يخرون أشلاء أو مجانين ، كما لو كانت قد سلطت عليهم قوى المردة الأسطورية من حيث لا يحتسبون .. وما سلطت عليهم سوى أنفسهم . وما كان إلا نذير الله الذي لم تتفتح له القلوب والآذان .

«ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب» ... (البقرة : ٢١١)

«ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل» ... (البقرة : ١٠٨)

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ...
(الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦)

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا – وأحل الله البيع وحرم الربا – فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ، وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربي الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم » ... (البقرة : ٢٧٥ – ٢٧٦)

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقي من الربا – إن كنتم مؤمنين – فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ... (البقرة : ٢٧٨ – ٢٧٩)

« والعصر إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » ... (سورة العصر)

* * *

والآن نأخذ في عرض أقوال الشهود عن بروز آثار الحضارة المادية وتضخمها في الأمم التي وصلت إلى قمة الحضارة .. فنستوفي بهذا عناصر المأساة الأربعة – كما أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث .

وقد أخذنا شهودنا من درجات متفاوتة . ومن بيئات مختلفة : منهم العالم المحقق ، المؤمن بالعلم ، المعتمد عليه في مواجهة المأساة .. ولا سواه .. ومنهم الفيلسوف الذي لا يؤمن بالدين ، ومع ذلك يرى على ضوء العقل الخطر الذي تتردى فيه البشرية .. ومنهم الباحث المؤمن بالدين وبالعقل وبالعلم وبفطرة الإنسان ، العارف في الوقت نفسه بمكان كل من هؤلاء

في مجال المعرفة ومجال العلاج .. ومنهم الطبيبة التي تقدر جديّة الموضوع ، فتعالجه بالجد الذي يستحقه . ومنهم الصحفي الذي لا يعنيه من المسألة إلا العرض الصحفي والتشويق والإغراء .

وقد اكتفينا بهذه الشهادات من عشرات مثلها ، لأنه لا سبيل لإثبات كل الشهادات ، واستدعاء كل الشهود ، في فصل من كتاب !

* * *

يبدأ الدكتور ألكسيس كاريل شهادته بالكلام عن مخالفة البشر لما يسميه « القوانين الطبيعية » — ونسميه نحن « قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها » — والعواقب التي لا بد أن يلقاها من يخالف هذه القوانين الصلبة التي لا تلين ، ولا تترك مخالفيها بلا عقوبة ، ثم يأخذ في بيان ما حل بالبشرية فعلاً من هذه العقوبة :

« قبل أن أبدأ هذا الكتاب ، كنت أدرك تماماً صعوبة هذا العمل بل استحالته تقريباً . ولكنني شرعت فيه ، لأنني كنت أعلم أن شخصاً ما لا بد سيؤديه .. **لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط . لقد فتنهم جمال علوم الجماد . إنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية — وهي قوانين أكثر غموضاً وإن كانت تتساوى في الصلابة مع القوانين الدنيوية ـ كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم** . ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوي ، ولأترابهم أبناء آدم ، ولذاتهم الداخلية ؛ وتلك التي تتصل بأنسجتهم وعقولهم . فإن الإنسان يعلو كل شيء في الدنيا ، فإذا انحط وتدهور ، فإن جمال الحضارة ، بل حتى عظمة الدنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى .. لهذه الأسباب كتبت هذا الكتاب » ... (ص ١٠ — ١١) .

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير ، التي يفرضها عليه المجتمع العصري .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها التكنولوجيا ، وأن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله . وأن العلم والميكانيكا ليسا مسؤولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن وحدنا المسؤولون . لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع . لقد نقضنا قوانين الطبيعة ، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً .. إن مبادئ « الدين العلمي » والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة « البيولوجية » ... فالحياة لا تعطي إلاّ إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد الأرض المحرمة .. هي إضعاف السائل . ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار . لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا . فقبلنا هداياها بلا تمييز ولا تبصر . ولقد أصبح الفرد ضيقاً ، متخصصاً ، فاجراً ، غبياً ، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته [1] ... (ص ٣٢٢) .

« إن الصفة الغالبة على الفرد في الحضارة العصرية هي الإفراط في النشاط الذي يوجه كله نحو الجانب العملي من الحياة . كذا يتصف الفرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء . وأيضاً بنوع من الضعف العقلي ، الذي يتركه تحت تأثير البيئة التي يتفق وجوده فيها ... ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق » ...(ص ٣٦) .

« يبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن انجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة . ففي كل بلد يوجد تناقص في المستوى العقلي والأدبي لأولئك المسؤولين عن الشؤون العامة » ...(ص ٣٧)

---

(١) سبق أن اقتطفنا هذا النص في الفصل السابق وأثبتناه هنا لضرورة دلالته .

«إننا قلما نشاهد أفراداً يتبعون مثلاً أخلاقياً أعلى في تصرفاتهم في المدنية العصرية» ...(ص ١٦٠)

«إن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائي بالجمال في عملهم أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك . إن الصناعة – بشكلها الحالي – حرمت العامل من الابتداع والجمال» ... (ص ١٦٢)

«إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفي والجمالي أو الديني يخلق أشخاصاً في المرتبة الدنيا ذوي عقول ضعيفة غير سليمة . وبالرغم من أن التعليم العقلي يهيأ الآن لكل فرد ، إلا أننا ما زلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص في كل مكان» ... (ص ١٦٨)

«فأكثر الناس تمديناً يظهرون شكلاً بدائياً فقط من الشعور . إنهم قادرون على العمل السهل ، الذي يؤمّن حياة الفرد في المجتمع العصري . إنهم ينتجون ويستهلكون ويرضون شهواتهم الفسيولوجية . وهم أيضاً يسرون بمشاهدة المباريات الرياضية ، والأفلام السينمائية الصبيانية الخشنة . كما يسرون حينما ينتقلون بسرعة من مكان إلى آخر بدون بذل أي جهد ، وحينما يتطلعون إلى الأشياء السريعة الحركة . إنهم ناعمون ، عاطفيون ، شهوانيون ، قساة ، مجردون من الإحساس الأدبي والديني والشعور بالجمال» ... (ص ١٦٩)

«إن عدم التناسق في دنيا الشعور ظاهرة مميزة لعصرنا» ... (ص ١٧٠)

«في استطاعة التفكير أن يولد أمراضاً عضوية بصفة عامة . ومن ثم فإن عدم استقرار الحياة العصرية ، والانفعال الدائم ، وانعدام الأمن ، تخلق حالات من الشعور تجلب الاضطرابات العصبية والعضوية للمعدة

والأمعاء . كذا نقص التغذية ، وتسرب الجراثيم المعوية إلى الدورة الدموية .. والتهاب الكلى وما يصحبه من أمراض الكلى والمثانة إن هي إلا النتائج البعيدة لعدم التوازن العقلي والأدبي .. ومثل هذه الأمراض تكاد تكون غير معروفة في الجماعات التي تحيا حياة بسيطة ، وليست على القدر الذي ذكرناه من الانفعال ، كما أن القلق فيها غير دائم .. وبالمثل فإن الأشخاص الذين يحافظون على سلام ذاتهم الباطنية ، وسط ضوضاء المدنية الحديثة محصنون ضد الاضطرابات العصبية والعضوية » ...(ص ١٧٧) .

« يجب أن يظل النشاط الفسيولوجي خارج حقل الشعور . إذ أنه لا يلبث أن يصاب بالاضطراب حينما نوليه اهتمامنا . ولذلك فإن « التحليل النفسي » حينما يوجه عقل المريض نحو نفسه ، قد يزيد من حالة عدم التوازن . ومن ثم فإنه من الأفضل أن يهرب الإنسان من نفسه ببذل جهد لا يشتت عقله ، بدلاً من الاستغراق في تحليل نفسه .. إذ أننا حينما نوجه نشاطنا نحو غاية محددة ، نجعل وظائفنا العقلية والعضوية كاملة التناسق . لأن توحيد الرغبات وتوجيه العقل نحو غاية واحدة ينتج ضرباً من السلام الداخلي . ولكن الإنسان يشتت نفسه بالتفكير مثلما يشتتها بالعمل .. ومع ذلك فإنه يجدر به ألا يقنع بتأمل جمال المحيط أو الجبال والسحب ، وروائع ما أنتجه الفنانون والشعراء ، والمبادئ السامية التي تمخضت عنها عقول الفلاسفة ، والعمليات الحسابية التي تعبر عن القوانين الطبيعية .. وإنما يجب عليه أيضاً أن يكون الروح التي تكافح لبلوغ مثل أدبي عال ، وتبحث عن النور في ظلمات هذا العالم ، وتسير قدماً في طريق الدين ، وتنبذ نفسها لكي تفهم الأساس غير المنظور لهذا العالم . إن توحيد نشاط الشعور يؤدي إلى تناسق أعظم بين الوظائف العضوية والعقلية .

ولهذا ندر أن توجد الأمراض العصبية وأمراض التغذية ، والإجرام ، والجنون ، بين الجماعات التي نما فيها الشعور الأدبي والعقلي في وقت واحد ، كما يكون الفرد أكثر سعادة في مثل هذه الجماعات » (ص ١٧٧—١٧٨) .

«إن الحضارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي، وترجع القيمة العقلية والروحية المنحطة لأغلب بني الإنسان - إلى حد كبير - إلى النقائص الموجودة في جوهم السيكلوجي. إذ أن تفوق المادة، ومبادئ دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق - كما عرفتها الحضارة المسيحية أم العلم الحديث[1]. كما أن الجماعات الاجتماعية الصغيرة التي لها شخصيتها وتقاليدها الخاصة، تحطمت بفعل التغيرات التي طرأت على عاداتها. وقد تدهورت الطبقات المثقفة لانتشار الصحف انتشاراً واسع المدى، كذا الأدب الرخيص، والراديو ودور السينما .. ومن ثم فإن ازدياد الطبقة الغبية آخذ في الازدياد أكثر فأكثر، بالرغم من كمال المناهج التي تدرس في المدارس والكليات والجامعات .. ومن العجيب أن بلادة الذهن توجد غالباً حيثما تتقدم المعرفة العلمية!

«إن أطفال وطلبة المدارس يكوّنون عقلهم من البرامج السخيفة التي توضع لوسائل التسلية العامة. ومن ثم فإن البيئة الاجتماعية تناهض نمو العقل بكل قوتها بدلاً من أن تعمل على هذا النمو». (ص ١٨٤)

«كما أن الشذوذ الجنسي آخذ في الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانباً، وأصبح المحللون النفسانيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية. ولم يعد هناك فرق بين الخطأ والصواب. والعدل والظلم. فالمجرمون

---

(١) هذا التقرير عن أن المسيحية أم العلم الحديث يخالف الواقع التاريخي. فالمسيحية - كما عرضتها الكنيسة - وقفت وقفة عنيدة في وجه المناهج العلمية الحديثة التي جاءت إلى أوروبا من العالم الإسلامي. وكانت هذه الوقفة من الأسباب الأصيلة للفصام النكد في أوروبا بين العلم والدين، وبين الدين والحياة أيضاً .. (يراجع في هذه القضية كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» تأليف محمد أسد، وترجمة عمر فروخ).

يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان ، وليس هناك من يبدي اعتراضاً على وجودهم .. ولقد جعل القساوسة الدين شبيهاً بالتموين لكل فرد منه قسط معين . وحطموا الأسس الغامضة ، ولكنهم لم ينجحوا في اجتذاب القوم العصريين . ومن ثم فإنهم يعظون عبثاً أصحاب الأخلاق الضعيفة في كنائسهم نصف الفارغة كل أسبوع .

« إنهم قانعون بدور رجل البوليس الذي يؤدونه . فهم يساعدون الأغنياء ومصالحهم ، لكي يحفظوا إطار المجتمع الحالي ، أو يتملقون شهوات الجمهور مثلما يفعل الساسة » ! ... (ص ١٨٦)

« ليس العقل قوياً كالجسم . ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها ، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم .. ويقول س . و . بيرس : « إن شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر » .. وفي الولايات المتحدة تبدي المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين . ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية ، وما يماثلها من المؤسسات ، حوالي ستة وثمانين ألف حالة جديدة . فإذا استمر عدد المجانين في السير على هذا المعدل ، فإن حوالي مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً أو آجلاً !

« ففي عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠٠٠٠ مجنون ، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين في المصحات الخاصة ٨١٥٨٠ وكان عدد مطلقي السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠٩٣٠ ، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات

العقلية التي تعالج في المستشفيات الخاصة . وعلاوة على المجانين يوجد في البلاد كلها ٥٠٠٠٠٠ شخص ضعاف العقول . ولقد كشف الفحص الذي تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠٠٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء ، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار في المدارس العامة والإفادة مما يتلقون من علم .. وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير . ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية ، مصابون باضطرابات نفسية[١] . **وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب ، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري . فإن أمراض العقل خطر داهم : إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى . بل والتيفوس والطاعون والكوليرا . فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف حتماً التفوق الذي تتمتع به الأجناس البيضاء[٢] حالياً** .. على أنه يجب أن يكون مفهوماً أنه لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التي يوجدون بها بين أفراد الشعب ! صحيح أن عدداً كبيراً ممن يعانون من النقائص العقلية موجود في السجون . بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعي الثقافة ، ما زالوا مطلقي السراح .

---

(١) هذه كلها احصاءات قديمة . وقد تضاعفت أكثر من مرة في هذه الفترة .

(٢) إن الذي يقلق بال الرجل هو فقط الخطر على الأجناس البيضاء .. وهذه إحدى عقابيل العقلية الغربية في شقوة البشرية . ولم يستطع الرجل العالم الواسع الأفق أن يتخلص منها !

« ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذي تعاني منه المدنية العصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية » ... (ص ١٨٧ – ١٨٨) .

« هناك أشكال معينة من الحياة العصرية تؤدي مباشرة إلى الانحلال كما توجد أحوال اجتماعية تهلك الجنس الأبيض » ...(ص ٢٦٤) .

« إن في استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عما إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موجودة في الرجال العصريين ! بل إن بعض المراقبين يرتابون في حقيقتها فـ « تيودور دريزر » يعتبرها أسطورة خرافية ! والحقيقة أن سكان المدنية الحديثة يظهرون تشابهاً كبيراً في ضعفهم العقلي والأدبي . فمعظم الأفراد ينتمون إلى طراز واحد . إنهم خليط من الأشخاص مضطربي الأعصاب بليدي الشعور ، مغرورين معدومي الثقة بأنفسهم ، أصحاب قوة عضلية ، وإن كانوا سريعي التعب . يعانون حدة الدافع الجنسية برغم ضعفهم وشذوذهم أحياناً » ...(ص ٣١٦) .

* * *

هذه فقرات مقتضبة من شهادة دكتور كاريل خاصة « بالإنسان » عامة في الحضارة العصرية .. وهناك جانب آخر أحببنا أن نفرده وحده . وهو شهادته فيما يختص بقضية المرأة ، وعلاقات الجنسين في هذه الحضارة ، وأخطارها على وجود الجنس البشري ، وعلى مستواه العقلي والأدبي .

ونحب أن ندعه هو يدلي بشهادته « العلمية » دون تعليق :

« علينا أن نستوثق من الكيفية التي ستؤثر بها طريقة الحياة في مستقبل الجنس . لقد كانت استجابة النساء للتعديلات التي أدخلتها الحضارة الصناعية على عادات الأسلاف سريعة قاطعة ، إذ نقص معدل المواليد فوراً . وقد تبين أثر ذلك بوضوح ، كما لمست نتائجه الخطيرة في الطبقات الاجتماعية وفي

الأمم التي سبقت غيرها في الانتفاع بالتقدم الذي حققته – إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة – بتطبيق الاكتشافات العلمية . فالتعقيم الاختياري ليس جديداً في تاريخ العالم . فقد عرف في مرحلة معينة من مراحل المدنية السابقة .. إنه ظاهرة علمية نعرف دلالتها[1] » ...(ص٣٧) .

« إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم . إذ انها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك .. إنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها ؛ ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض ... ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة ، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً ، وأن يمنحا سلطات واحدة ومسؤوليات متشابهة .. والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي . فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور . فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة » ...(١١٤) .

« إن الأب والأم يساهمان بقدر متساو في تكوين نواة البويضة ، التي تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد . ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة

---

(١) لعله يشير إلى ما وقع من هذا في أواخر أيام الحضارة الإغريقية ، وأواخر أيام الحضارة الرومانية . وأدى في كلتا الحالتين إلى سقوطها واندثارها !

النووية كل البروتوبلازم المحيط بالنواة .. وهكذا تلعب دوراً أهم من الأب في تكوين الجنين» ...(ص ١١٥) .

«إن دور الرجل في التناسل قصير الأمد . أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر . وفي خلال هذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيماوية ترشح من دم الأم من خلال أغشية الخلاص . وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التي تتكون منها أنسجته فإنها تتسلم مواد معينة تفرزها أعضاء الجنين . وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطرة . فحقيقة الأمر أن الجنين ينشأ تقريباً من الأب مثلما ينشأ من الأم . فإن مخلوقاً من أصل غريب – جزئياً – قد اتخذ له مأوى في جسم المرأة . فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل . وقد تتسمم المرأة في بعض الأحيان بواسطة جنينها ، كما أن أحوالها الفسيولوجية والسيكولوجية تعدل به دائماً .. وعلى أي حال يبدو أن النساء – من بين الثدييات – هن فقط اللائي يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين . كما أن النساء اللائي لم يلدن لسن متزنات توازناً كاملاً كالوالدات . فضلاً عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن .. صفوة القول ان وجود الجنين ، الذي تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم ، بسبب صغرها ، ولأنها – جزئياً – من أنسجة زوجها ، تحدث أثراً كبيراً في المرأة . **إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية . مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة .. ومن ثم فمن سخف الرأي أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة . ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلي والمادي ، ولا أن تبث في نفسها المطامع التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم .. يجب أن يبذل المربون اهتماماً شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى . كذا لوظائفها الطبيعية . فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين . ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدين»** (١١٦ – ١١٧)

«أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال ، وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية ؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط . بل أيضاً على رعاية صغارها» .(٣٦٨ - ٣٦٩) .

وأخيراً :

«من المعروف أن الإفراط الجنسي يعرقل النشاط العقلي . ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو ؛ وكبت مؤقت للشهوة الجنسية ، حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته .. ولقد أكد فرويد ، عن حق ، الأهمية القصوى للدوافع الجنسية في وجوه نشاط الشعور . ومع ذلك فإن ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص . ومن ثم يجب ألا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين ، وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازاً عصبياً قوياً ، وسيطرة على أنفسهم .. وبينما يصبح الضعفاء ، المعتلو الأعصاب ، غير المتزنين ، أكثر شذوذاً عندما تكبت شهواتهم الجنسية ، فإن الأقوياء يصيرون أكثر قوة ، بممارسة هذا الشكل من الزهد[1] » ...

(ص ١٧٤)

* * *

ولنأخذ شهادة «ول ديورانت» الكاتب الأمريكي المتفلسف .. وهو رجل لا يمكن أن يقال إنه من أعداء هذه الحضارة . فهو شديد الإعجاب بالتقدم الذي تمثله هذه الحضارة في مجموعها . وهو يبدو معارضاً للدين في جملته ، كما أنه ظاهر العداء للإسلام بصفة خاصة .. وقد نشرت له مؤسسة فرنكلين

(١) هذا ما يقوله عالم متخصص . أما جهلاء الصحفيين عندنا ، وكتاب القصص الجنسي ، ومجلات الإغراء الرخيص ، فتوحي كلها للشبان أن يفرغوا طاقتهم الجنسية ليحصلوا على الراحة والاستقرار ! ! !

ترجمة جزء من كتابه «مباهج الفلسفة» ونشرت له جامعة الدول العربية ترجمة أجزاء من كتابه قصة الحضارة . ويستطيع قارئ اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الإعجاب بهذه الحضارة في جملتها ، كما يلاحظ موقفه ن الدين جملة ، وعداءه الظاهر للإسلام خاصة .

ومع هذا كله فهو يؤدي هذه الشهادة عن هذه الحضارة في كتابه «مباهج الفلسفة» :

«وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطرة ، لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض . وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني ؛ وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا ؛ ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط ، نعني : كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة ، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى ، حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض ، وترتب سلم الرغبات . إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعي للحرب . وعندنا مئة ألف سياسي ، وليس عندنا «رجل حكم» واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل . ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ، ولم نفكر في ذلك ، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة . ولن ننجو منها بغير الحكمة[1] » ... (ص ٦ – ٧ ج ١) .

---

(١) يلاحظ هنا اعترافه بأن حرارة الإيمان الديني قد أوجدت «اتزان العقل» وأن هذا الاضطراب كله الذي يصفه إنما نشأ من تنحية الزواجر العلوية .. ومع هذا فهو يهاجم الدين جملة والإسلام بصفة خاصة في ثنايا كتابه ! وبماذا يريد أن يستبدل الدين ؟ بالفلسفة أو كما =

واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل ، وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل . ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بهما الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة ! » ... (ص ١٢٥ ج ١) .

« فحياة المدنية تفضي إلى كل مثبط عن الزواج ، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمو الجنسي يتم مبكراً عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادي . فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي الزراعي ، فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً وغير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم ؛ وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ؛ ويختفي الحياء الذي كان يضفي على الجمال جمالاً ، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة من الرجال ، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً ، وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة

= يسميها الحكمة ! والأرض لم تخل من الفلسفة في أي عصر ، ولكنها لم تقم أبداً مقام الإيمان الديني في قيادة المجتمع إلى التوازن ، وإلى التسامي الخلقي . كذلك يلاحظ تشبيهه المغرض للدين الذي شردوا عنه بالوثنية التي كانت قبل سقراط ، والتي انهارت فأنشأت لعصر سقراط تلك المشكلة التي يتحدث عنها . فالتسوية بين الديانات السماوية والوثنية الإغريقية لا تعبر إلا عن الهوى .

الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي ، ولم يعد العالم المدني يحكم به[1] » ...(ص ١٢٦ – ١٢٧) .

«ولسنا ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسؤولاً عنه . ولا في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب ، لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة . ويرجع بعضها إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملال الذي يحسونه في حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة ؛ وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسان[2] . وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية ، وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين ، وهم في حمّى الفوضى الصناعية ، من حِمَى الزواج ورعايته للصحة .

«ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل

---

(١) يلاحظ ميله – وهو أمريكي – إلى اعتبار قواعد المذهب الماركسي في التفسير الاقتصادي للتاريخ . وقد دفعه هروبه من الدين إلى هذا المأزق . فهو لا يريد أن يعترف أن شرودهم عن الدين هو الذي أدى بهم إلى هذه الفوضى .. إنما هو مجرد الانتقال من العهد الزراعي إلى العهد الصناعي !!!

(٢) هذا في الحقيقة هو السر . «في عالم خلقه الإنسان» في معزل عن الله وهداه ! وهذا هو سبب البلاء .

الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ، ومنظماً بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها» ... ص (١١٧ – ص ١١٨) .

«وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة ، قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات – وقد أكسبهم المال جرأة – أن الدين يشهّر بملاذهم التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بدين . وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفاً للحياة . وقد كان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنباً ؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : أليس من الإجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها ؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتوجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة» ...(ص ١٣٤) .

«وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في ظل هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين في ظل الصناعة والتجارة ، وعودت الجنود الوحشية والإباحية . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقي . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية ، وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية ، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية[1] .

---

(١) يعترف هنا بسوء الأثر الذي أحدثه تحطيم الإيمان بالعناية الإلهية وانتزاع سند العقيدة الدينية من الضمير . بينما هو في كتابه كله لا يستهدف غرضاً أظهر من تحطيم الإيمان بالعناية =

وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي . وأصبحت الحكومات في واد والشعب في واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح ، بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، أو إلى طفيليات فاسدة . ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية في الماضي[1] وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة » ...

(ص ١٣٥ - ١٣٦) .

« لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلا بد أن يتغير كل شيء . فقد قل أمن الفرد في الوقت الذي نما فيه الأمن الاجتماعي . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمناً مما كانت ، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة ، مما يجعل الخطر جاثماً كل لحظة . أما الشباب الذي أصبح أكثر إقداماً وأشد غروراً من قبل ، فهو عاجز مادياً ، وجاهل اقتصادياً إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيوبه صفر من من المال . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفاً (وقد مرت السنوات) ومع ذلك لم تمتلئ الجيوب بما يكفي للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة ، فيحتفل الزواج بموت الحب.

= الإلهية وانتزاع سند العقيدة الدينية من الضمير ، والزراية على الإيمان بالغيب وعلى الزواجر العلوية ! ! !

(١) يشير إلى وسائل منع الحمل والوقاية من الأمراض السرية . الأمران اللذان وفرتهما الحضارة !

«حتى إذا سئمت فتاة المدنية الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية . فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها ، وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج منتظراً متردداً ، إذ كيف يمكن أن يكفي أجره المتواضع للإنفاق عليهما معاً في مستواهما الحاضر من المعيشة ؟

«وأخيراً تجد الرفيق الذي يطلب يدها للزواج ، ويعقد عليها لا في كنيسة . لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقي الذي ظل جاثماً على إيمانهما المهجور أثر في قلبيهما . إنهما يتزوجان في قبو المكتب البلدي (الذي يفوح منه عبير الساسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف ، بل بعقد من المصلحة ، لهما الحرية في أي وقت في التحلل منه . فلا مراسيم مهيبة ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة في الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن . ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً ، ويتوجهان إلى البيت في صخب .

«إنه ليس بيتاً ! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشئ وسط الحشائش النضرة والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لهما الزهور والخضروات التي يشعران بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلاً كأنهما في زنزانة سجن ، في حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيهما فيها طويلاً ، ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئاً روحياً كالبيت الذي كان يتخذ

مظهراً ويكسب روحاً قبل ذلك بعشرين عاماً (الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩) بل مجرد شيء مادي فيه من الجفاف والبرودة ما تجده في مارستان. فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع، لا ينبت لهما الصيف الزرع النضر بل سيلاً من المطر. ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح في السماء أو أي ألوان على أوراق الشجر، بل المتاعب والذكريات الحزينة.

«وتصاب المرأة بخيبة أمل. فهي لا تجد في هذا البيت شيئاً يجعل جدرانه تحتمل في الليل والنهار، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تهجره في كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر. ويخيب أمل الرجل، فهو لا يستطيع أن يتجول في أنحاء هذا البيت، يعزي شعورهُ ببنائه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق. ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التي كان يعيش فيها وهو أعزب، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبهاً عادياً تلك العلاقات غير البريئة التي كان يعقدها مع المستهترات من النساء. فلا جديد في هذا البيت، وليس فيه ما ينمو، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف وطأته. إذ أين يمكن أن يلعب الطفل؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة في المدينة؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب... فيعتزمان منع النسل... إلى أن يقع بينهما الطلاق!

«ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح – لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة – فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه، ومقومات الحياة. يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع. وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان. وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر. وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية

في التنويع ، حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته» ...(ص ٢٢٣ – ٢٢٥) .

«ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون في تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها . وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء ، فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً . وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد . سينهار «المستوى المزدوج» وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً في كل طبقة ، يضحي الحمل أمراً عارضاً في حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شيء ! [1] » ..(ص ٢٣٥ – ٢٣٦) .

* * *

والآن نسمع شهادة الأستاذ أبي الأعلى المودودي في بعض جوانب هذه

---

(١) يلاحظ أن هذا كله قد تم في أمريكا كما توقع الكاتب ، وأن هذا البلاء يزحف علينا زحفاً نكداً كئيباً .

الحضارة ، وما أنشأته من آثار تنطوي على تهديد مدمر للحياة الإنسانية ذاتها فضلاً على الخصائص الإنسانية :

من كتاب « الحجاب » :

« إن أساطين الفلسفة والأدب وأقطاب العلوم الطبيعية الذي رفعوا لواء الإصلاح في القرن الثامن عشر ، كانوا – كما سبق لنا الإشارة إليه – يجابهون نظاماً للتمدن فيه أنواع من القيود والسدود ، وفيه صلابة من غير مرونة ، وعسر من غير يسر ، طافحاً بالتقاليد التي لا يقبلها الطبع والضوابط الجامدة ، والطرق المناقضة للفطرة والعقل . وزاد طينه بلة انحطاط القوم المتواصل على طول القرون فجعله عقبة كأداء في كل طريق للرقي . فبجانب كانت النهضة العلمية والعقلية الجديدة تبعث في نفوس الطبقة المتوسطة أشد الميل إلى التقدم والنبوغ بالعمل والاجتهاد الذاتي . وبجانب آخر كانت على رؤوسهم طبقة الأمراء والزعماء الدينيين تبالغ في شدهم بالأغلال التقليدية . فمن الكنيسة إلى الجندية والقضاء ، ومن قصور الإمارة إلى المزارع ودور التجارة .. كل شعبة من شعب الحياة ، وكل مؤسسة للتنظيمات الاجتماعية ، كانت تجري على نظام يتيح لبعض الطبقات المخصوصة بحجة امتيازاتها القديمة وحقوقها المتوارثة ، أن تعسف وتجور على من لا ينتمي إليها من العاملين الناهضين ، فتذهب بثمار أعمالهم ، وتستأثر بنتاج مواهبهم وكفاءاتهم . فكل محاولة يقوم بها القائمون لإصلاح تلك الحال كانت تخيب وتفشل ، بإزاء أثرة الطبقات المسيطرة وجهالتها ..

« لهذه الأسباب كلها غدت الطبقات الناشدة للإصلاح تثور في نفوسهم مع الأيام ثائرة الانقلاب الجامحة ، حتى غلبت عليهم وعمتهم ، آخر الأمر ، نزعات البغي والثورة على هذا النظام الاجتماعي بجميع شعبه وأجزائه .. وراج بين الناس نظرية متطرفة في الحرية الشخصية ، ترمي إلى إعطاء الفرد الحرية

التامة ، والإباحية المطلقة بإزاء المجتمع . فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق في عمل ما يشاء ، والحرية الكاملة في ترك ما يشاء ، وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية .. الخ » (ص – ٦٠ – ٦١) .

« من غرائب الاتفاق أنه قد واتت هذا الانقلاب الفكري – وهو في صدر شبابه – أسباب تمدنية أخرى . ففي هذا العصر قامت الثورة الصناعية الشهيرة ، وأعقبتها تغيرات هامة في الحياة الاقتصادية ، كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ما هو عون على تحويل وجهة سير الاجتماع الحديث إلى حيث تريد الآداب الانقلابية أن تحولها . وذلك أن تصور الحرية الشخصية ، الذي نشأ عليه النظام الرأسمالي ، جاءت الاختراعات الميكانيكية ، وإمكانات وفرة الإنتاج الصناعي (Mass Production) تحكمه وتقويه . فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسسات صناعية وتجارية كبرى ، وتحولت المراكز الجديدة للصناعة والتجارة إلى مدن عامرة ، أصبح ينجر إليها من القرى والأرياف أضعاف الملايين من النفوس . وغلت تكاليف الحياة غلاءً فاحشاً ، وارتفعت أسعار الحاجيات للحياة ، من المطعم والملبس والمسكن ، إلى ما فوق طاقة العامة ، زد على ذلك أن أضيف إلى حاجات الحياة ما لا يحصى من وسائل المعيشة المتجددة لأسباب راجع بعضها إلى ارتقاء التمدن وبعضها إلى مساعي أهل الثروة .

« ولكن النظام الرأسمالي لم يوزع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المتع واللذات ، وأدوات الزينة والزخرفة التي أدخلها في لوازم الحياة ، بل هو لم يهيئ للعامة من وسائل المعاش ما يسدون به عوزهم بسهولة من حاجات الحياة الحقيقية – وهي السكنى والطعام واللباس – في تلك المدن التي قد زج بهم إليها ..

« كان من نتائج ذلك كله أن أصبحت المرأة كَلاًّ على زوجها ، وأصبح

الولد عبثاً على أبيه ، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه ، فضلاً عن أن يعول غيره من المتعلقين به . وقضت الأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحد من أفراد المجتمع عاملاً مكتسباً . فاضطرت جميع طبقات النساء – من الأبكار والأيامى والثيبات – أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويداً .

«ولما كثر بذلك اختلاط الصنفين ، واحتكاك الذكور والإناث ، وأخذت تظهر عواقبه الطبيعية في المجتمع ، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية ، وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق ، فهدّأ من قلق الآباء والبنات ، والإخوة والأخوات ، والبعولة والزوجات ، وجعلا نفوسهم المضطربة تطمئن إلى أن الذي هو واقع أمام أعينهم ، لا بأس به ، فلا يوجسوا منه خيفة ، إذ ليس هبوطاً وتردياً ، بل هو نهضة وارتقاء (Emancipation) وليس فساداً خلقياً ، بل هو عين اللذة والمتعة التي يجب أن يقتنيها المرء في حياته ، وأن هذه الهاوية التي يدفع بهم إليها الرأسمالي ، ليست بهاوية النار ، بل هي جنة تجري من تحتها الأنهار[١] .

«وما وقف الأمر عند هذا الحد . بل جاء النظام الرأسمالي الذي دفعت قواعده على هذا التصور للحرية الشخصية ، فمنح الفرد حقاً مطلقاً من كل قيد أو شرط في اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق . وتبعته فلسفة الأخلاق فأباحت له كل وسيلة يمكن أن تتخذ لجمع الأموال ، وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل والطرق مهلكة أفراد كثيرين .. وبذلك تألف نظام التمدن ، من أوله إلى آخره ، على صورة تؤثر الفرد على الجماعة

(١) كأنما هذا الرجل الفاضل العميق النافذ يصف ما تقوم به صحافة وكتاب قصة وأجهزة توجيهية كثيرة في بلادنا ، في دأب وإصرار .. إن بروتوكولات صهيون تقول : إنها ستقوم بهذا التدمير في جميع الأمم ، لتسقط في يد ملك صهيون في النهاية !

من كل وجهة ، وليس فيها ضمان للمحافظة على مصالح الجماعة بإزاء أثرة الفرد . فانفتحت السبل على إخوان الطمع والأثرة ليغيروا ويعتدوا على المجتمع كيف يشاؤون . فعمد هؤلاء إلى الغرائز الإنسانية يتحسسون فيها مواطن الضعف والخلل ، وراحوا يتفننون في استغلالها لأغراضهم . فقام واحدهم ، وروج في الناس سيئة الخمر جلباً للثروة إلى جيبه ، ولم ينهض منهم من ينقذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون . وقام آخر وابتلى خلق الله بآفة الربا ، ونصب شبكته في القاصية والدانية ، وما هنالك من يدفع عن دماء الناس ضر هذا العلق ، بل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدويبة الفتاكة ، كي لا يسلم منها أحد بقطرة من دمه . وجاء ثالث وأشاع في المجتمع طرقاً مبتكرة للقمار ، حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عنصره ، وما ثمة من يتقدم لحفظ الحياة الاقتصادية من هذه الحمى المحرقة .

«وما كان من الممكن في هذا العصر من الأنانية والبغي والعدوان الفردي ، أن يغرب عن إخوان الأثرة والطمع ، ذلك الضعف الإنساني الأكبر .. الشهوة الجامحة .. التي يمكنهم باستثارتها جلب كثير من المنافع . فلم يفتهم ذلك فعلاً ، بل استخدموا غريزة الشهوة العارمة في الإنسان ما وسعهم وما أمكنهم . إذ أصبح مدار العمل والعناية كلمة في المراقص والمسارح ومراكز إخراج الأفلام ، على أن تستخدم لها الغيد الحسان ، ويعرضن على المنصة في صورة أكمل من التبرج ، وفي هيئة أقرب إلى العري ، ويجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر ما يمكن من إضرام نار الشهوة فيهم .. جاء قوم فمهدوا الأسباب لإكراء النساء ، وتقدموا بحرفة البغاء إلى أن أصبحت تجارة دولية منظمة .. وجاء آخرون فتفننوا في صنع أدوات الزينة والزخرفة ، ثم عمموها في المجتمع ليزيدوا من غريزة التبرج التي جبلت عليها المرأة إلى أن يجعلوها فيهن هوساً ؛ ويجمعوا بذلك الذهب والفضة ملء أكفهم .. وجاءت فئة أخرى فاخترعوا لملابس النساء أزياء كاشفة مغرية ،

واستخدموا كل فاتنة الجمال لتلبسها وتغشى بها النوادي والحفلات ، حتى يقبل عليها الشباب ويفتنوا بها ، فتغرم الفتيات بتلك الأزياء الجديدة من اللباس ، وتربح تجارة مخترعيها . وتذرع آخرون بإشاعة الصور العارية والقصص الغرامية ، والمقالات الخليعة ، إلى استدرار الأموال ؛ وأخذوا كذلك يملأون جيوبهم بإصابة العامة بالجذام الخلقي . حتى انتهت الحال ، على مضي الأيام ، إلى أن لم تبق ناحية من نواحي التجارة خالصة من عنصر الإغراء . وها أنت ذا صرت لا ترى في زمانك هذا إعلاناً من الإعلانات التجارية في الجرائد والمجلات ، إلا وسمته الملازمة البارزة ، صورة امرأة عارية أو في حكم العارية ، كأنه لم يعد من الممكن أن يكون إعلان ما وافياً بالغرض بدون وجود المرأة[1] ، ولا تجد كذلك فندقاً من الفنادق ولا مقهى ، ولا صالة عرض إلا وقد استخدمت فيها المرأة لتعمل عملها المغناطيسي في الرجال[2] .

«وكان المجتمع المسكين المخذول لا يملك - حيال ذلك كله - إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصالحه . وهي أن يستعين بتصوراته الخلقية على دفع تلك الغارات عن نفسه ، ويتحفظ من استيلاء غريزة الشهوة عليه .. ولكن النظام الرأسمالي لم يكن من الضعف والهوان بحيث يمكن رد حملته بسهولة . وإنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداة ، وعسكر شيطاني عرمرم ، من العلوم والآداب ، كانا لا يزالان يعملان عملهما في نسخ

(١) أقرأ هذا ، وأقرأ صفحات «المرأة» في صحافتنا كلها ، فأجد كأنما الرجل يصف ما عندنا ، لا ما هو واقع في ذلك العالم الرأسمالي ! وأعود إلى «بروتوكولات صهيون» فأجد فيها النص على اتباع هذه الخطة . وأعلم - إذن - من أين تستقي صحافتنا مناهجها ؛ وما هي الخطة التي تنفذها في مجتمعنا ! ولحساب من تنفذ هذه الخطة !

(٢) تراجع الهامشة السابقة !!!

النظريات الخلقية ومحوها من النفوس[1] .

«ومن براعة القاتل – والله – أن يحمل قتيله على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورضاه» (ص ٨٢ – ٨٧) .

... «هذه حال المرأة عندهم .. وأما الرجال فما تزيدهم كل هذه المظاهر الخلابة من الجمال النسوي إلا شوقاً وطموحاً ونهمة . لأن نار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأججة في الصدور ، لا تخمد بكل منظر جديد من الخلاعة والسفور ، بل تزداد لهيباً ، وتتطلب منظراً آخر أكثر منه سفوراً وحسوراً وتكشفاً . ومثلهم في ذلك كمثل من تصيبه لفحة من السموم ، فيكاد لا يسكن ظمؤه . كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً وظمأ . فهم دائماً في إعداد أدوات ، وتهيئة أسباب وظروف لإطفاء أوار شهوتهم المبرح بهم ، ولا يهدأ لهم دون ذلك بال ، ولا هم يستقر لهم قرار . وما هذه الصور العارية ، وهذا الأدب المكشوف وهذه القصص الغرامية وهذه المراقص والمباذل ، والمسرحيات المشحونة بالانفعالات والنزعات العارمة .. ما هذه كلها إلا نماذج من جهودهم وحيلهم التي يتعاطونها لإخماد الشهوات الجامحة – ولكن في الحقيقة لاستثارتها والنفخ فيها – التي أججها هذا المجتمع الماجن ، وتلك الحياة الاجتماعية الضالة ، في صدر كل فرد من أفرادهم .. ولكنهم سموها بالفن (Art) لإخفاء هذا الضعف الكامن في نفوسهم وفي حياتهم .

«ولا يزال هذا الداء الوبيل – من غلبة الشهوات البهيمية – ينخر في كيان الأمم الغربية ، وينتقص من قوة حياتها بسرعة هائلة . والتاريخ يشهد أنه

(١) تراجع الهامشة السابقة !!!

ما سرى هذا الداء في مفاصل أمة ، إلا أوردها موارد التلف والفناء . ذلك بأنه يقتل في الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه في هذه الحياة . وأنّى للناس – لعمر الله – ذلك الهدوء وتلك الدعة والسكينة ، التي لا بد لهم منها لمعالجة أعمال الإنشاء والتعمير ، ما دامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب ، وتكون عواطفهم عرضة أبداً لكل فن جديد من الإغراء والتهييج ، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة ، قوي التحريض ، ويكون الدم في عروقهم في غليان مستمر بتأثير ما حولهم من الأدب الخليع ، والصور العارية ، والأغاني الماجنة ، والأفلام الغرامية ، والرقص المثير ، والمناظر الجذابة من الجمال الأنثوي العريان ، وفرص الاختلاط بالصنف المخالف . أستغفر الله – بل أنّى لهم ولأجيالهم الناشئة – أن يجدوا في غمرة هذه المهيجات الجو الهادئ المعتدل الذي لا مندوحة عنه لتنشئة قواهم الفكرية والعقلية ، وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يغتالهم غول الشهوات البهيمية ويستحوذ عليهم . وإذا هم وقعوا بين ذراعي هذا الغول فأنّى لهم النجاة منه ومن غوائله وعواديه[1] ؟ » (ص ٣٧ – ٣٩) .

« كان أكثر الأمم تأثراً بحركة منع التناسل هي فرنسا . فكانت نسبة المواليد فيها إلى الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالي (عند نشوب الحرب العالمية الأولى) ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع والثمانين تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات . وأما المقاطعات السبع والستون الباقية ، فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد . وكان معدل

(١) راجع شهادة الدكتور كاريل السابقة في ضرورة الكبت فترة ، ضماناً للنمو العقلي . على عكس ما يهتف به دعاة الإباحية والتحلل للشباب المسكين ؛ تنفيذاً لبروتوكولات صهيون !

الوفيات في بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٣٠ و١٧٠ بإزاء كل مئة مولود . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ، ودفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة ، أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين ، ورجال محاربين ، وأنه إن ضحى – على الفرض – بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها في سبيل الدفاع عن الوطن في تلك الآونة ، فإنه لن تمكن النجاة من كرة العدو الثانية . فكان من انبعاث هذا الشعور في نفوس الفرنسيين أن تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم ، وجعل الكتاب والصحفيون والخطباء – وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة – كلهم يهيبون بالناس ، من كل جانب ، وبصوت واحد : أن يكثروا من التوليد والتناسل ، ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والزواج . ونادوا أن العذراء التي تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن ، تستحق العز والكرامة لا العتب والملامة ! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزاً قوياً لدعاة الحرية والإباحية ؛ فانتهزوا الفرصة السانحة ، وبثوا جميع ما كان قد بقي في جعبة فكرهم الشيطاني من النظريات» ... (ص ٧٢ – ٧٣) .

«إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم ، اضمحلال قواهم الجسدية ، وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ؛ وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم ، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم . فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي ، على فترة كل بضع سنين ، لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام . وهذا مقياس أمين يدلنا – كدلالة مقياس الحرارة في الصحة والتدقيق – على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة

الفرنسية[1] » ...(ص ١١٣) .

« والنكبة الثانية العظيمة التي قد جرها على التمدن الفرنسي طغيان الشهوة المطلقة ، ورواج الإباحية وقبولها : هي خراب النظام العائلي وتقوض بنيانه ... » (ص ١١٤) .

« والأمة الفرنسية – كما أسلفت – لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عاماً متوالية . ففي بعض السنين تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد وفي الأخرى تتساويان ؛ وفي الثالثة لا تزيد على نسبة الوفيات إلا بقليل جداً . وبجانب آخر لا يزال عدد الجالية المهاجرين في فرنسا ينمو ويكثر ، فكانوا قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليوناً من سكان فرنسا الأصليين سنة ١٩٣١ . وإن استمرت الحال على ما هي عليه الآن ، فلا يستبعد أن تعود الأمة الفرنسية عند ختام القرن العشرين أقلية في وطنها هي » ... (ص ١٣٢) .

« ولا يحسبن أحد أن الأمة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذ عن غيرها في هذا الباب . بل الأمر أن جميع الأمم التي قد آمنت بما ذكر آنفاً من نظريات الأخلاق ومبادئ الاجتماع المتطرفة تماثلها وتجاريها في تلك الحال » ... (ص ١٢٣) .

« نشر في جريدة (Free Press) بدوترويت (Detroit) الأمريكية مقال جاء فيه :

« إن ما قد نشأ بيننا الآن من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاحش العلاقات

---

(١) ومثل هذه الظاهرة أخذت تتجلى في الشباب الأمريكي . فقد أعلن رئيس الولايات المتحدة أن أكثر من مليون شاب أمريكي لم يصلحوا للخدمة العسكرية من بين ستة ملايين تقدموا للتجنيد . وعزا ذلك إلى ضعف بنية الشعب الأمريكي بصفة عامة ، نتيجة لحياة الترف التي انغمس فيها ..

غير المشروعة – الدائمة والعارضة – بين الرجال والنساء ، يدل كله على أننا راجعون القهقرى إلى البهيمية . فالرغبة الطبيعية في النسل إلى التلاشي ، والجيل المولود حبله على غاربه ، والشعور بكون تعمير الأسرة والبيت لازماً لبقاء المدنية والحكم المستقل ، يكاد ينتفي من النفوس . و بخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال لمآل المدنية والحكومة وعدم النصح لهما » ... (ص ١٣٧) .

« كل هذا الاتباع لأهواء النفس ، والنفور من تبعات الزوجية ، والتبرم بالحياة العائلية ، والارتخاء في الروابط الزوجية ، يكاد يذهب في المرأة عاطفة الأمومة الفطرية ، التي هي أشرف العواطف الروحية وأسماها في النساء ؛ والتي لا يقف عليها بقاء الحضارة والتمدن فحسب ، بل بقاء الإنسانية جمعاء . وما نجمت سيئات منع الحمل وإسقاط الجنين ، وقتل الأولاد ، إلا بنضوب هذه العاطفة في نفس المرأة . فالمعلومات عن تدابير منع الحمل موفورة لكل فتى وفتاة في الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من قيود القانون . والآلات والعقاقير المانعة للحمل معروضة للبيع في الحوانيت كالسلعة المباحة ، تستصحبها دائماً بنات المدارس والكليات – بله عامة النساء – لكي لا تفوت إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب ، إن نسي خدينها أن يأخذ أدواته معه . فيكتب القاضي « لندسي » (في محكمة دنفر) :

«٤٩٥ بنتاً في السن الباكرة من بنات المعاهد الثانوية اعترفن لي بأنهن كن قد جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان ، إلا أنه لم تحمل منهن إلا خمس وعشرون . وأما الباقيات فسلم بعضهن من الحمل بمحض الاتفاق . ولكن كانت لأكثرهن خبرة كافية بتدابير منع الحمل . وهذه الخبرة قد عمت فيهن إلى حد لا يكاد الناس يصيبون في تقديره »[1] ...(ص ١٣٩) .

---

(١) كتب القاضي هذا الكلام في سنة ١٩٢٢ .. وهذه الحالة تعتبر رجعية ! فالتقدم لا يتوقف ! =

«وقد ذكرت في مجلة أمريكية هذه الأسباب التي لا تزال تؤدي إلى رواج الفحشاء وقبولها هناك ، بالكلمات الآتية :

«عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض : أولها الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة .. والثاني الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب ، بل تلقنهم دروساً عملية في بابه .. والثالث انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء الذي يظهر في ملابسهن بل في عريهن ، وفي إكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام .. **هذه المفاسد الثلاثة فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام . ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر . فإن نحن لم نحد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للشهوات والأهواء موارد التهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء ومشاغل ورقص وغناء»** ... (ص ١٢٩) .

* * *

والآن نستمع إلى شهادة الطبيبة التي تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبد

= ولعل هذا ما تريده بعض صحافتنا ، وتعتبره رسالة لها ولكنها ليست رسالة لحساب هذا البلد . وإنما لحساب صهيون ، وبروتوكولات صهيون ! .. إن واحدة من هذه الصحف تحدثت عن عدم كفاية الجيش التركي لأن طائفة «الدونما» الصهيونية قد أشاعت فيه الانحلال . فأصبح الضابط التركي يصلح لكل شيء إلا للقتال بعد ما ضيعته الصهيونية وعلمته التسكع في شارع أتاتورك لمغازلة الفتيات ! فما الذي تصنعه هذه الصحف في شعوبنا ؟ وهل تصنع إلا ما صنعته الدونما في تركيا ؟ لذلك يحق لنا أن نسأل لحساب من تعمل وتنشر في شبابنا التميع والفساد ؟

الرحمن «بنت الشاطئ» بعنوان «جنس ثالث في طريقه إلى الظهور» من من مشاهداتها في «فينا» :

«... شاءت الظروف أن أذهب في عطلة الأحد ، لزيارة صديقة لي طبيبة بإحدى ضواحي «فينا» – بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية في دار الكتب – وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبي ، حين فتحت لي صديقتي باب بيتها معجلة ، وفي يدها «بطاطس» تقشره . ثم قادتني في لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك .

«ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة . فابتدرتني قائلة :

«ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة في المطبخ ، يوم الأحد !

«قلت ضاحكة» :

«أما العمل يوم الأحد فربما فهمته . وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك ، فهذا ما لم أنتظره .

«فردت» :

«لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب : فالعمل في عطلة الأحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالي بالمطبخ ، فلعلي لم أتجاوز به نطاق مهنتي . إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معي سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

«ولما سألتها عن سر هذا القلق – مع استقرار الوضع الاجتماعي للمرأة الغربية – أجابت بأن ذلك القلق ، لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد

يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا في المرأة العاملة ، وذلك لما لحظوا من تغير بطيء في كيانها ، لم يثر الانتباه أول الأمر ، لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص في المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع ، تحت ضغط الحاجة والاستقرار في العمل . ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار ، بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه في الغالب لا يرجع إلى عيب عضوي ظاهر . مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارئ على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي – عن قصد أو غير قصد – عن مشاغل الأمومة ، ودنيا حواء ، وتشبثها بمساواة الرجل ، ومشاركته في ميدان عمله .

«واستند علماء الأحياء في هذا الفرض – نظرياً – إلى قانون طبيعي معروف ، وهو أن «الوظيفة تخلق العضو» ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة للأنوثة ، لا بد أن تضمر تدريجياً بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه «عالم الرجل» .

«ثم تابع العلماء هذا الفرض ، فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظراً ، وإذا بهم يعلنون – في اطمئنان مقرون بشيء من التحفظ – عن قرب ظهور «جنس ثالث» تضمر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

«وثارت اعتراضات .. منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي

حقها في العمل ، ويتيح لها بحكم القانون ، فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال ، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب .

«وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائماً الخوف من أعبائه ، والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في محل العمل . ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا في حدود ضيقة ، وتحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج ، فيرد عليه بأن هذا الخروج – على قرب العهد به – قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل ، وإصرار عنيد على التشبه به ، مما عجل ببوادر التغيير ، لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها في ضميرها .

«وما يزال المهتمون بهذا الموضوع ، يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ، ويستقرئون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات ، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن ، وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة» ... (جريدة الأهرام) .

* * *

من مقال إخباري في أخبار اليوم (من استوكهلم) لموسى صبري :

«قال لي أستاذ جامعي سويدي :

«إننا نعلم أبناءنا وبناتنا في المدارس الثانوية ، وفي سن مبكرة ، كل شيء عن الجنس ، واضحاً صريحاً . ليست لدينا مشكلة جنس[1] . إن

---

(١) سنرى ... قليل في المقال نفسه مدى صحه هده الدعوى !

المتعة الجنسية كمتعة الطعام اللذيذ ، ومتعة الملابس الأنيقة ، والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبل الزواج هي شيء طبيعي عادي . وما يباح للشاب يجب أن يباح للفتاة !

... «وخلاصة القول ان «حرية الحب» في السويد تعني أن نداء الجنس هو نداء طبيعي ، كنداء البطن ، ونداء العقل .. ليس فيه ما يدعو إلى كبته ، أو شدة كتمانه .. ولقد تطور بهم مجتمعهم إلى هذه النظرة المجردة إلى الجنس بين الرجل والمرأة – وقد فوجئت وأنا أتروض في حدائق «سكانسن» ذات صباح مشمس ، بوجود بركة مياه لاستحمام الصبية والبنات . ورأيت الأولاد والبنات يستحمون في الماء عرايا ، كما ولدتهم أمهاتهم ، وهم ما بين سن الثامنة والحادية عشرة .. وتبددت المفاجأة تماماً ، عندما عرفت أن الكبار أيضاً من النساء والرجال ، ينزلون إلى البحر ويمرحون على الشاطئ ، وهم عرايا تماماً .. ليس هذا هو أسلوبهم في التصييف ، فهناك من يرتدي المايوه . ولكن نزول «شلة» من الجنسين إلى البحر – وهم عرايا – أمر لا يلفت النظر ، ولا يدير أي رأس !

والسؤال : وماذا تفعل الفتاة إذا أصبحت أماً بغير زواج ؟

«والجواب : إذا تخلصت من جنينها كان بها . وإذا لم تتخلص فإن الدولة كفيلة برعاية الطفل وحضانته وتعليمه بالمجان ، حتى سن السادسة عشرة .. وهو يقيد في سجل المواليد باسم أمه . أو باسم الأب – إذا اعترف به – والمجتمع لا يعطي الابن غير الشرعي أو الأمهات غير المتزوجات إلا كل تقدير واحترام !

«وهنا نتساءل – في جد وخطورة :

«إذا كانت السويد تعتبر كدولة من أرقى دول العالم ، فهل نستطيع أن

نتصور ، أننا – وباقي الدول – سننجرف إلى هذا المصير ، إن عاجلاً أو آجلاً[1] ؟

«وتأكيد تقدم السويد – كأرقى دول العالم – أمر تؤيده الإحصاءات ، وتعترف به كل الأبحاث العلمية .

«إن ما يخص الفرد الواحد في السويد من الدخل القومي يساوي ٥٢١ جنيهاً مصرياً في العام . أي حوالي ٤٣ جنيهاً في الشهر الواحد .

«ووصل نظام الحكم الاشتراكي في السويد إلى ما يقارب محو الفروق تماماً بين الطبقات ، بفرض الضرائب التصاعدية ، وإيجاد مختلف أنواع التأمينات الصحية والاجتماعية ، التي لا تجدها في دول أخرى .

« كل مواطن سويدي يستحق معاشاً ، وإعانة مرض ، ومعاش عدم صلاحية ، وإعانة غلاء معيشة وإعانة للسكن ، وإعانة للعمى .

« كل مواطن يستحق نصيبه من التأمين الصحي ، وإعانات المرض التي تصرف نقداً ، والعلاج المجاني في المستشفيات .

«تدفع إعانة أمومة لكل النساء . تشمل هذه الإعانة مصاريف الولادة والرعاية الطبية في المستشفى ، وإعانة إضافية لكل مولود .

«التأمين ضد إصابات العمل إجباري .

«شروط الإعانات في حالة البطالة هي أسخى شروط معروفة دولياً .

---

(١) نحن ننجرف فعلاً ، وبسرعة مخيفة ، إلى هذا المصير بفضل أجهزة التدمير المسلطة على أخلاق شعوبنا ومقوماتها !

« تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة أقرب إلى الخيال . منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيهاً في العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة . رعاية صحية مجانية . مصاريف انتقال مجانية للأجازات يتمتع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة . مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم .

« التعليم في جميع مراحله بالمجان ، مع تقديم إعانات ملابس ، وإعانات معيشية لغير القادرين ، وتقدم للطلبة قروض دراسية تصل إلى ٢٥٠ جنيهاً للطلبة المجتهدين .

« تقدم الدولة قروضاً لتأثيث منازل العرسان تصل إلى ٣٠٠ جنيه بفائدة بسيطة تسدد على خمس سنوات .

« إن ثلث الضرائب التي يدفعها الشعب السويدي تنفقها الدولة في التأمينات الاجتماعية وتدفع الدولة ٨٠ ٪ منها في مساعدات نقدية . إن أضخم ميزانية هي ميزانية وزارة الشؤون الاجتماعية التي وصلت هذا العام إلى ٣٣٤ مليون جنيه . ثم تليها ميزانية وزارة التربية وقد بلغت ١٣٣ مليون جنيه . بينما تنزل ميزانية القصر الملكي إلى حوالي ٤٠٠ ألف جنيه فقط .

« مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة وتكوين أسرة ، فإن الخط البياني لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض .. مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ، ثم تكفل لطفلها الحياة حتى الجامعة .. فإن الأسرة السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب الأطفال على الإطلاق ..

« يقابل هذا » :

« انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين ..

«وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين ..

«مع ملاحظة أن ٢٠ ./ من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبداً .

«لقد بدأ عهد التصنيع ، وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام ١٨٧٠ . كانت نسبة الأمهات غير المتزوجات في ذلك العام ٧ ./ وارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٢٠ إلى ١٦ ./ والإحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة !

«**إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله** . إن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات – طبقاً للإحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد – والنسبة بدأت صغيرة ، وهي مستمرة في الزيادة .. في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقاً بين كل ١٠٠ ألف من السكان . ارتفع هذا الرقم إلى ١٠٤ في عام ١٩٥٢ . ثم ارتفع إلى ١١٤ في عام ١٩٥٤ .

«سبب ذلك أن ٣٠ ./ من الزيجات تتم اضطراراً تحت ضغط الظروف ، بعد أن تحمل الفتاة ، والزواج بحكم «الضرورة» لا يدوم بطبيعة الحال . ويشجع على الطلاق أن القانون في السويد لا يضع أية عقبة أمام الطلاق ، إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جداً . وإذا طلب أحدهما الطلاق فإن أي سبب بسيط يقدمه ، يمكن أن يتم به الطلاق .

«**وإذا كانت «حرية الحب» مكفولة في السويد .. فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد .. إنها «حرية عدم الإيمان بالله»** ! لقد انتشرت في السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق . وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضاً . فالمدرسون في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ، ويبثونها في عقول النشء والشباب .. **إن الكنائس**

موجودة في كل مكان ، ولكنها أقرب إلى التحف الأثرية . والدولة تصرف على الكنائس ، وتدفع مرتبات القسس . ولكن الكنائس لا تفتح أبوابها إلا صباح الأحد لبضع ساعات ، ولا يؤمها إلا عدد محدود جداً من العجائز – أمثال جدتي وجدتك – والنكتة التي تسمعها منهم : أنهم حددوا ساعات العمل للكنيسة بثلاث ساعات في الأسبوع . وأنها من حقها بعد ذلك أن تأخذ إجازة .. لم يعودوا يؤمنون بأن الدين هو وسيلة إلى إشباع حاجات النوع الإنساني !

« وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا . إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف ، وإلى الإدمان على المخدرات والخمور .

... « وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفاً . أي ما يوازي ١٠ ٪ من مجموع أطفال العائلات كلها .. وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف .. إن من قبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين ، بين سن ١٥ ، ١٧ ، يوازي ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاماً . وعادة الشراب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيئ إلى أسوأ .. ويتبع ذلك حقيقة رهيبة .

« إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية ، تلازم أمراضهم الجسدية . ولا شك أن التمادي في التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية ، ويزيد من دواعي تفكك الأسرة ، ويقربهم إلى هوة انقراض النسل ..

« قال لي صحفي نرويجي :

« إن مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان ..

« قلت له :

«وماذا تفعل حكومتكم لدرء هذا الخطر ؟

«أجاب متألماً :

«إن حكومتنا أيضاً ليست مؤمنة» ... (أخبار اليوم) .

* * *

وبدون أي تعليق أو تعقيب ، نغلق هذا الفصل ، على هذه النذر الرهيبة . فهي ناطقة بذاتها . إن الذين يخالفون عن قانون الفطرة ، لا يمكن أن يمضوا بلا عقاب .. وهو عقاب رهيب ولو تفتحت عليهم أبواب كل شيء من خيرات الأرض ، ورخاء العيش ، ومضاعفة الدخل ، والضمانات المادية الخيالية . فللحياة الإنسانية قوانينها الفطرية الصارمة التي لا تجامل ولا تتخلف ، ولا تلين ...

هذه القوانين هي التي يقول عنها الدكتور ألكسيس كاريل :

«إنهم لم يدركوا أن أجسامهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية ، وهي قوانين أكثر غموضاً – وإن كانت تتساوى في الصلابة – مع القوانين الدنيوية . كذلك لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم» .

ولقد حذر الله – سبحانه – عباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين . وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه ، المتمشي مع سنته في الكون ، فلا تكون لهم من عواقبها نجاة :

«فلما نسوا ما ذكّروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون . فقُطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين» ... (الأنعام ٤٤ – ٤٥)

«حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تَغْنَ بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون» ... (يونس ٢٤٦) .

وصدق الله العظيم ..

كيف الخلاص ؟

والآن ماذا يا ترى يكون حكمنا على هذه الحضارة الصناعية ؟

ماذا بعد هذه الشهادات الدالة على بشاعة الجريمة ، وعلى الخطر الداهم على « الإنسانية » ؟ على وجودها ذاته بالميل إلى الانقراض في الدول التي بلغت قمة الحضارة ؟ وعلى خصائصها الثمينة بالميل إلى الجنون والأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والإجرام ، وهبوط مستوى الذكاء ، وضعف العقل والاحتمال الجسدي والعصبي والنفسي في هذه الدول .. إلى آخر قائمة الاتهام الرهيبة ؟!

ترى نصدر حكمنا بالإعدام ؟ وهو الحكم الذي يبدو متكافئاً مع ظروف الجريمة ؟!

إن الدكتور « كاريل » يقول : إنه كتب كتابه هذا : « الإنسان ذلك المجهول » .. « لأولئك الذين يجدون من أنفسهم شجاعة كافية ليدركوا - ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية بل أيضاً ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري » ..

وسنعرف فيما بعد ما هي الفكرة الأخرى التي يقترحها ..

أما نحن فسنبادر بالقول بأن حكم « الإعدام » لهذه الحضارة ، ليس هو أنسب الحلول التي تملكها البشرية ..

إننا أولاً لا نملك إصدار حكم بالإعدام على الحضارة الصناعية . فهي

نتاج طبيعي ، له مكانة في تاريخ الحياة البشرية ، ولم يهبط عليها من عالم آخر ، ولا جاء مصادفة ، ولا نبت سدى .. ومن ثم فهذه الحضارة عميقة الجذور ، أصيلة الوجود ، وجدت لتلبية حاجة طبيعية للبشرية في موعدها التاريخي المناسب كذلك .. ومن ثم لا تكون قابلة للإعدام ، لو اخترنا أن نصدر عليها هذا الحكم ، لفظاعة الجرائم التي ارتكبتها في حق الإنسان ! ! !

وعلى فرض أننا نملك تنفيذ حكم كهذا .. أو على فرض أن « تتاراً » جدداً قد انبعثوا في هذه الأرض يحطمون حضارتها – كما حطموا حضارة بغداد – ويلقون بكتب هذه الحضارة في أنهار الرين والراين والسين والتيمس والبوتوموك ... أو أن حفنة من مجانين البشر الذين يملكون القنبلة الذرية والقنبلة الأيدروجينية والصواريخ وما إليها ، قد أصابتهم (النوبة) ! في لحظة فأطلقوا الدمار على مراكز هذه الحضارة !

على أي فرض من هذه الفروض ، فإن تحطيم هذه الحضارة – على هذا النحو – يبدو لنا – من خلال نظرتنا البشرية المحدودة ، التي لا تعلم حقيقة الخير والشر ، ولا تعرف شيئاً عن مآلات الأفعال – أنه ليس في صالح البشرية .. وفي حدود هذه النظرة لا نملك أن نصدر حكم الإعدام على هذه الحضارة على الرغم من جرائمها البشعة ضد العنصر الإنساني !

إذن .. كيف الخلاص ؟

* * *

الدكتور ألكسيس كاريل يرى أن طريق الخلاص هو :

« مزيد من علوم الإنسان . يمكننا من إعادة إنشاء الإنسان » .

« يجب أن يكون « الإنسان » مقياساً لكل شيء .. ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب في العالم الذي ابتدعه .. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . ومن ثم فإن التقدم الذي أحرزته

علوم الجماد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية .. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا .. إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً .. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة ، الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها .. ولكنها لا تدرك ذلك . إذ ليس ما يحميها من الظروف التي شيدها العلم حولها .. وحقيقة الأمر أن مدنيتنا ، مثل المدنيات التي سبقتها ، أوجدت أحوالاً معينة للحياة ، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لا تزال غامضة .. إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم الجماد .

«إن العلاج الوحيد الممكن لهذا الشر المستطير هو : معرفة أكثر عمقاً بأنفسنا .. فمثل هذه المعرفة ستمكننا من أن نفهم ما هي العمليات الميكانيكية التي تؤثر بها الحياة العصرية على وجداننا وجسمنا .. وهكذا سوف نتعلم كيف نكيف أنفسنا بالنسبة للظروف المحيطة بنا ، وكيف نغيرها ، إذ لم يعد هناك مفر من إحداث ثورة فيها .. ولئن استطاع هذا العلم أن يلقي ضوءاً على طبيعتنا الحقة ، وإمكانياتنا ، والطريقة التي تمكننا من تحقيق هذه الإمكانيات ، فإنه سيمدنا بالإيضاح الصحيح لما يطرأ علينا من ضعف فسيولوجي ، كذا لأمراضنا الأدبية والعقلية .. **إننا لا نملك وسيلة أخرى لمعرفة القواعد — التي لا تلين — لوجوه نشاطنا العضوي والروحي ، وتمييز ما هو محرم مما هو شرعي ، وإدراك** أننا لسنا أحرار لنعدل في بيئتنا وفي أنفسنا تبعاً لأهوائنا .. وما دامت الأحوال الطبيعية للحياة قد حطمتها المدنية العصرية ، فقد أصبح علم الإنسان أكثر العلوم ضرورة» ..(ص ٤٣ — ٤٥)

* * *

ونحن نهتف مع الدكتور كاريل : «مزيداً من علوم الإنسان» .. ولكننا لا نرى – معه – أن هذا – وحده – يكفي . ولا نثق مثله هذه الثقة المطلقة في ما قد نصل إليه من المزيد في علوم الإنسان . ولا نقف – مثله – يائسين من «وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التي لا تلين لوجوه نشاطنا العضوي والروحي ، وتمييز ما هو محرم ، مما هو شرعي ، وإدراك أننا لسنا أحراراً لنعدل في بيئتنا وفي أنفسنا تبعاً لأهوائنا» ..

إن المزيد من علوم الإنسان ضروري لنا .. لنعرف منه – على الأقل – أقصى الإمكانيات التي في طوقنا ، وطوق العلم ، أن نبلغها من المعرفة «بالإنسان» . ونقف على حدود المجهول الذي لا حيلة لنا وراءه . فهذه المعرفة ضرورية لنحدد – على ضوئها – ما الذي نملك وما الذي لا نملك من التصرف في شأن «الإنسان» لعلنا نلتزم حدودنا ولا نتعداها ، ولا نخبط وراءها في التيه بلا دليل ، كما فعلنا حتى اليوم ، بلا مبالاة .

والدكتور كاريل كان قد سبق فقرر لنا أن هناك أسباباً لتخلف علوم الحياة عن علوم الجماد – ليست طارئة ولا وقتية – إنما هي ثابتة وطبيعية .. أسباباً ترجع إلى تعقد الحياة من جهة ، وإلى طبيعة عقلنا من جهة أخرى . ومن ثم قرر لنا أن علوم الحياة لن تبلغ – في يوم من الأيام – ما بلغته علوم الجماد من الدقة والجمال .. وبالضبط قال لنا بألفاظه :

«إن معرفة أنفسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ، والجمال التي بلغها علم المادة . إذ ليس من المحتمل أن تختفي العناصر التي أخرت تقدم علم الإنسان» ... (ص ٢٣) .

فمن العجيب – بعد ذلك – أن يجعل اعتماده كله ، في حل مشكلة الحضارة ، وإعادة إنشاء الإنسان ، على «مزيد من علوم الإنسان» .

ولكننا لكي نزيل هذا العجب ، يجب أن نواجه مشكلة دكتور كاريل

نفسه . فإن مواجهتها تفيدنا في تعيين الجهة التي يمكن أن يأتي منها الخلاص الحقيقي ، والاتجاه الواحد الميسور للخلاص ..

إن هذا الرجل الواسع المعرفة ، العميق الحساسية ، الشديد الإخلاص ، المتحرر المفكر ، الثائر على الحضارة الصناعية ، حتى ليرى أن ليس هناك ما هو أقل من « قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري ».

إن هذا الرجل – على كل هذه الفضائل والخصائص فيه – رجل « غربي » نشأ في البيئة الغربية ، بكل ملابسات تاريخها القديم وحاضرها الراهن . كما أنه نشأ في ظل هذه الحضارة ، وفي بيئة « العلم » الذي هو طابعها الظاهر ..

وبسبب كل هذه الملابسات فهو ... سجين هذه الحضارة .. سجين بيئتها وتاريخها وملابسات حياتها .. سجين الانطباعات والرواسب العميقة العنيفة في هذه البيئة .

ومن ثم لا يملك – حين يثب الوثبة الكبرى – أن يخرج من إطارها ..

ونزيد هذه الحقيقة العجيبة إيضاحاً :

إن الدكتور كاريل يتنفس في بيئة آمنت بالعلم التجريبي إيماناً مطلقاً فترة قرنين من الزمان ..وعلى الرغم من أنها بدأت في هذا القرن الأخير تفيق من نشوة انتصار العلم ، وهي تراه يقف على عتبات المجهول عند آفاق كثيرة . فإن رواسب القرنين الماضيين لا تزال عميقة وعنيفة .. حتى عند الذين عرفوا « حدود العلم » ..

وهو في الوقت ذاته يتنفس في بيئة عرفت الدين – في أحسن صوره – تصوفاً روحياً مرفرفاً شفيفاً ، واتصالاً بالغيب من غير وساطة مادية ظاهرة ،

وصلاة ودعاء يغيب فيها الفرد عن ذاته ، ويندمج في الملأ الأعلى .

وهذه هي الصورة الوضيئة المشرقة الحبيبة إلى نفس الدكتور العالم الشاعر المتصوف المرفرف ، كما يصفها في كتابه هذا ، وكتابه الآخر الذي عنوانه « الصلاة » .. وكما يكرر ضرورة توفير الجو المناسب لانطلاقها في حياة البشر .. وكما يثور على الحضارة المادية الصناعية ، لأنها تخنقها ، وتخنق معها كل شعور بالجمال ، وكل نشاط فني أو روحي أو ديني ..

ومن هاتين النقطتين : نقطة الإيمان بالعلم ، ونقطة تصور الدين على هذا النحو وفي هذه الحدود .. تنشأ مشكلة الدكتور كاريل ، وأمثاله ممن تهولهم فظاعة التدمير الذي تنشئه هذه الحضارة في حياة الإنسان «وروحه» ، وتهتف بهم أشواقهم الروحية إلى استشراف حياة فيها للعقيدة الروحية مكان ..

تنشأ المشكلة من ثورته على هذه الحضارة ومن « سجنه » في إطار هذه الحضارة في الوقت ذاته .

ومن هنا لا يرى أن هناك وسيلة أخرى لوقف هذا التدمير الذي تنشئه هذه الحضارة في الكيان الإنساني ..

إنه لا يملك منهجاً للحياة إلا الذي يقرره العلم .. لأن الدين – كما هو في بيئته – في أحسن صوره ، لا في الصورة الكريهة المنفرة الأخرى – هو مجرد نشاط روحي ، وتهذيب خلقي ، واتصال بالعوالم الغيبية ..

وهو في صورته هذه يمثل جانباً واحداً من جوانب التكوين الإنساني . فالاقتصار عليه شديد الخطورة ، لأنه معوق للنشاط الواقعي العملي الإيجابي – المادي – وهو يحذر أشد التحذير من أن يكون الهروب من الحضارة إلى مثل هذا العالم الذي لا يحوي إلا النشاط الروحي .. وهو محق تماماً في تحذيره هذا . إذ كان لا ينشئ إلا نكسة إلى « الرهبنة » التي ذاقت منها أوروبا ما ذاقت

في تاريخها ، والتي انتهت – كما أسلفنا – إلى الجموح المادي الكافر الغليظ الجافي .

فأما لو فكر في أن يكون للحياة منهج ديني واقعي .. فإن صورة كريهة مفزعة تخايل له . لأنها الصورة التي عرفتها كذلك أوروبا .. صورة الكنيسة الطاغية التي تفرض تصوراتها الخرافية على العلم والعلماء وعلى الحياة والأحياء .. وهي صورة كذلك أمرّ وأدهى ..

لا مفر إذن – لأمثال هؤلاء المخلصين المساكين – إلا أن يلجأوا إلى « العلم » وإلى العلم وحده . حتى فيما يحسون هم أنفسهم أن العلم لن يصل بهم فيه إلى نتائج حاسمة قاطعة كالتي وصل إليها في عالم المادة ..

ولكن ماذا بيدهم ؟ ماذا يملكون للبشرية غير هذا ؟

* * *

ولكننا نحن نملك ...

نحن – أصحاب المنهج الإسلامي للحياة – نملك للبشرية ما لا يملكه أحد آخر على ظهر هذا الكوكب .. ونملك أن ننقذ دكتور كاريل نفسه حيرته هذه ؛ وأن نستجيب لصراخه المخلص العميق الحاد ! ! !

ونحن – أصحاب المنهج الإسلامي للحياة – ندرك من دراستنا لموقف الدكتور كاريل الذي يستحق العطف والرثاء أننا – وحدنا – مكلفون أن نتقدم لحمل العبء ، ولندل البشرية على طريق الخلاص ، ولننشئ هذا الطريق أيضاً ..

نحن نملك منهجاً للحياة ، لا يعادي العلم مطلقاً ؛ ويرحب بمزيد من علوم الإنسان على وجه الخصوص .. ولكنه في الوقت ذاته لا يكل لهذا العلم –

وحده – بناء الحياة الإنسانية ، إنما يضع الإطار العام الذي يعمل فيه العلم ويعمل فيه العقل ، في دائرة مأمونة ..

هذا الإطار من صنع الذي «يعلم» حق «العلم» حقيقة هذا الإنسان وفطرته ، وطاقاته ، وحاجاته الحقيقية . فلا تخفى عليه من الإنسان خافية ! ولا يضع أمام عشرات المسائل ومثاتها في حياة الإنسان وتركيبه علامة استفهام واحدة ؟!

وهو إطار واسع جداً ، شامل للإنسان كله . تدور الحياة البشرية في داخله على محور ثابت . فتتحرك دائماً حول هذا المحور ، وداخل هذا الإطار ، حركة نامية متجددة ، وهي في الوقت ذاته آمنة سالمة .

ومنهجنا هذا لا يجعل الدين مجرد ذلك النشاط الروحي الذي لا يعرف دكتور كاريل صورة غيره للدين .. إنما هو يجعل الدين بوتقة الحياة كلها .. تصهر فيه ، ثم تشكل في جميع صورها وألوانها ، كما يجعله هو الإطار الذي تزاول الحياة كل نشاطها في داخله . وهو المحور الذي تشد الحياة كلها إليه . والعقل والعلم والصناعة والاقتصاد والسياسة والصلاة والدعاء والاتصال بالملأ الأعلى ظواهر لهذا النشاط حول هذا المحور وداخل هذا الإطار .. إن منهجنا يفهم «الدين» على أنه هو منهج الحياة الإنسانية بكل مقوّماتها .. المنهج الذي وضعه الله ، وارتضى أن تسير وفقه الحياة .

ومن ثم نجد طريقاً للخلاص . يحتوي – في بعض مراحله – طريق الدكتور كاريل ، بلا تعارض ولا تخاصم ولا شقاق .

* * *

إن منهجنا يبدأ من نقطة سابقة جداً على النقطة التي يبدأ منها دكتور كاريل ، والكثيرون غيره من المخلصين الغربيين ، الذين لا ينقصهم

الإخلاص ، ولا تنقصهم الخبرة ، ولا تنقصهم الرغبة في تدارك البشرية من الهاوية التي تنحدر إليها . ولكنهم مع هذا «سجناء» بيئتهم وحضارتهم .. أبعد خطاهم وثبة في داخل القفص .. لا تتعداه إلى منهج مبتكر من أصوله . لأنهم لا صلة لهم بهذا المنهج من الناحية التاريخية ولا من الناحية الشعورية – على فرض معرفتهم به من الناحية العلمية – إذ المعول في مثل هذه المواقف الفاصلة على رواسب التاريخ وكوامن الشعور ..

منهجنا يبدأ من نقطة تصحيح مركز الإنسان في هذا الوجود . وتعيين مكانه ودوره ، ووظيفته وحقوقه وواجباته ..

إنه ليس إلهاً ينازع « الآلهة » ! وتنازعه . وليس كذلك حيواناً جاءت سيادته على الأرض مصادفة ، وقد يقوم مقامه في هذه السيادة غداً قط أو فأر ! وليس آلة تحسب قيمته بقوة « الأحصنة » التي يساويها في قوة التحريك والإدارة . وليس عبداً للمادة ، ولا هو لوحة تطبع فيها المادة (أو الطبيعة) ما تريد . وليس عبداً للآلة ، تصرف حياته وأفكاره وأوضاعه كما تتصرف هي وتتقلب . وليس « نمرة » ولا مجموعة « نمر » تتحرك داخل القطيع ، بلا شخصية مميزة ، ولا كيان « فردي خاص » .

وليست المرأة أحبولة للشيطان ، وليس اتصال الجنسين رجساً من عمل الشيطان . وليست اللذة والمتعة هي غاية هذا الاتصال ، ولا الهوى دافعه ومانعه على السواء . وليس الجنسان سواء في وظيفتهما وعملهما ؛ وليس مجرد التفرقة بينهما في التكوين البيولوجي عبثاً لا معنى له ولا هدف وراءه .. إلى آخر ما مرت به النظرة إلى « الإنسان » من تخبط واضطراب ..

كلا .. إنما الإنسان .. إنسان .. «إنسان» وليس إلهاً – هو سيد هذه الأرض وهو عبد لله في آن .. وهو مسلط على هذه الأرض ، ومسخر له كل ما فيها ، وعليه أن يخلف الله – سبحانه – فيها ، ويغير فيها ويبدل ، وينمي

فيها ويرقى ، وهو مُعانٌ على استغلال كنوزها وطاقاتها . معانٌ بما وهبه الله من قوى وطاقات ، ومعانٌ بما في نواميس هذا الكون من عون للإنسان في هذا المجال .. وفي الوقت ذاته هو من نفسه في حرم مقدس . حرم من حرمات الله . لا يمسه إلا بإذن الله ، ولا يعمل فيه إلا بمنهج الله . ولم يوهب معرفة أسرار هذا الحرم – إلا بقدر – ولم يسمح له أن يضع له من تلقاء نفسه المناهج والخطط والشرائع والأوضاع . ولم يؤذن له أن يتخذ إلهه هواه ..

وهو « إنسان » – وليس حيواناً – هو مخلوق فذ في هذا الكون . مخلوق قصداً ، ولخلقته حكمة . ومزود بطبيعة خاصة – فوق طبائع الحيوان – وبخصائص معينة – فوق خصائص الحيوان – لأداء وظيفة معينة في الأرض لا يؤديها الحيوان . وله – من ثم – مقام كريم ، يعادل وظيفته الكريمة .. كان كذلك يوم نشأ ، وهو كذلك اليوم ، وسيكون كذلك غداً .. والذين خالفوا عن هذه الحقيقة يعودون إليها مرغمين الآن ..

وهو «إنسان» – وليس آلة ، ولا عبداً للآلة ، ولا من صنع المادة ، ولا من صنع الآلات – وهو كائن معقد شديد التعقيد ، ليست له بساطة المادة ولا طواعية الآلة . والذي نعلمه عن تعقيده قليل – ونحن في أول الطريق من علوم الإنسان ، ولم نصل بعد إلى المزيد من علوم الإنسان الذي يتطلبه دكتور كاريل – ومع ذلك فقد واجهتنا « الحياة » بتعقيدها المخيف الذي لم تواجهنا به المادة ، وواجهنا « الإنسان » بتعقيد أشد هولاً ..

فمن الجرأة المتهورة المتهجمة على «العلم» وقواعده ، الزعم بأن هذا الإنسان مادة ، والتعامل معه كالتعامل مع المادة .. ومن التخبط أن نزعم أنه كالآلة ونعامله كما نعامل الآلة .. ثم من التوقح البغيض أن نقول : إن الآلة (أداة الإنتاج) هي الإلـه الذي يغير فيه ويبدل كما يشاء ! ! !

وهو «إنسان» – وليس « نمرة » من النمر ولا فرداً من القطيع – هو

إنسان يتميز أفراده بعضهم من بعض ، ويتمتع كل فرد بذاتية مستقلة لا نظير لها ، ووحدانية حقيقية – رغم اشتراكهم جميعاً في خصائص إنسانية عامة – ولكل فرد منهم « خصائصه الذاتية » إلى جانب « الخصائص الإنسانية » .. ومن ثم ينبغي أن يكون النظام الاجتماعي ، والنظام الاقتصادي ، والنظام السياسي . والطريقة الفنية للعمل في المصانع وغيرها (التكنولوجيا) مبنية على أساس ملاحظة « الخصائص الإنسانية » العامة أولاً . و« الخصائص الفردية الذاتية » ثانياً . فلا يحشر الجميع في نظام للعمل كالقطيع . ولا يكون عمل الفرد في المصنع أو في أي مكان ، بديلاً عن عمل الآلة ، المتماثلة الغُرزَ والطرقات .

وحين تحترم خصائص الإنسان العامة ، وخصائص الأفراد الذاتية ، فلن يتعذر على المهندسين والمديرين إيجاد طرائق العمل الفنية التي تحافظ على هذه الخصائص وتلك ، ولن يتعذر على « التكنولوجيا » أن تضمن الإنتاج الكبير وتضمن في الوقت ذاته المحافظة على هذه الخصائص وتلك ، فلا تسحق « الإنسان » ولا تسحق « الفرد » في عمل أو نظام .

وهو «إنسان» من ذكر وأنثى .. من نفس واحدة ، نعم .. ولكنهما جنسان ومنهجنا يعرف هذه الحقيقة بشطريها ، ويكفل لشطري النفس الواحدة حقوقاً واحدة – فيما يتعلق بالأصل الإنساني العام – ولكنه في الوقت ذاته يفرض على كل منهما واجبات مختلفة ، وفق الوظيفة الخاصة في العمران ، ووفق طاقة كل منهما ومجموعة تكاليفه ، فلا يكلف المرأة المسكينة مثلاً أن تحمل وترضع وتربي ، وفي الوقت ذاته تعمل وتكدح وتشقى .. بينما الرجل لا يشاركها الحمل والرضاع والتربية . ثم يزعم بعد ذلك أنه ينصف المرأة ويحترمها ويرقيها ! ولا يكلف المرأة أن تهمل صناعة « الإنسان » لتشتغل بصناعة «الأشياء» . فالإنسان في منهجنا أغلى من الأشياء . ولا يجوز فيه أن تشتغل المرأة المثقفة الماهرة الحكيمة بصناعة الأشياء وإنتاجها ؛ وأن

تستجلب لأبنائها امرأة أخرى أقل ثقافة ومهارة وحكمة ، وأرخص أجراً بالطبع ، لتشرف لها على « الأبناء » بينما هي تشرف على « الأشياء » !

وهكذا – وفي ظل هذا المنهج ، ومن نقطته السابقة في البدء – يصبح المزيد من علوم الإنسان ذا قيمة في موضعه المناسب ، في مرحلة من مراحل الطريق . لا من بدء الطريق .

* * *

ومنهجنا لا يجد نفسه – بعد ذلك – في مشكلة أمام الصناعة والحضارة الصناعية ..

إن هذا المنهج لا يرفض الحضارة الصناعية ولا يحفل منها ، ولا يتنكر لها .. إنها – ابتداء – وليدة اتجاهه المبكر إلى « العلم التجريبي » ، هذا الاتجاه الذي انتقل إلى أوروبا عن طريق جامعات الأندلس وعلم المشرق – كما يقرر بريفولت ودوهرنج وجب وغيرهم ممن لا يملكون إنكار الحقائق التاريخية – وهذا الاتجاه هو أصلاً وليد نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان ، ودور الإنسان في هذه الأرض . ووليد طبيعة المنهج الإسلامي إلى « واقعيات » الكون ، وتدبرها والانتفاع بها . وهو اتجاه مخالف تماماً لاتجاه الفلسفة الإغريقية التجريدية ، التي ورثتها العقلية الأوروبية ؛ ومخالف كذلك للتصورات الكنسية ، التي كانت تجعل علوم الكون المادي « تصورات مقدسة ثابتة » بينما الإسلام يطلق العقل البشري – في هذا المجال – ليبحث ، ويجمع الشواهد ، ويتتبع الظواهر ، وينشئ القوانين ، ويتحرى وسائل استخدامها وتسخيرها في عالم الواقع . ويخطئ ويصيب بلا تجريم ولا تأثيم .

وإذن فإن هذا المنهج لن يرفض الحضارة الصناعية ، لأنها وليدة طرائقه المنهجية التي انتقلت إلى أوروبا ، فرفضتها الكنيسة وشنت عليها حرباً شعواء قاسية ، انتهت بهزيمة الكنيسة ، وانتهت – مع الأسف – بهزيمة الدين كله

لارتباطه في أوروبا بالكنيسة ..

إن القاعدة التي يقوم عليها بناء الحضارة الحديثة – من الناحية العلمية – ليست غريبة علينا . بل هي ابتداء من عندنا – كما رأينا – ومنهجنا ينظر إلى نتاج الحضارة – من الناحية العلمية – نظرته إلى أمانة ردت إليه ، وساهم هو في نشأتها مساهمة أساسية قبل خمسمئة عام . وبينه وبينها صلح قديم من حيث أن طبيعة المنهج الإسلامي التي تنفر من الفلسفة النظرية المجردة – على الإغريق – وتتجه إلى « المثالية الواقعية » أو « الواقعية المثالية » كانت هي الحافز الأول لهذا الاتجاه العلمي التجريبي الذي لم تكن جذوره في أوروبا . لا من الحضارة الإغريقية ولا من الحضارة الرومانية ، ولا من التصورات الكنسية هذه التصورات التي لم تكن سوى خليط من النصرانية السمحاء التي جاء بها عيسى – عليه السلام – والوثنية المخرفة التي أدخلها فيها قسطنطين وكبار رجال الدولة الرومانية حين دخلوا في النصرانية ، وزاد طينتها بلة التصورات الكنسية عن الآراء العلمية الخاطئة التي كانت رائجة في زمانها ، وتبنتها الكنيسة ، واعتبرتها آراء مقدسة عن الكون المادي والحياة .

إنما الذي يرفضه منهجنا ويشتد في رفضه ، من هذه الحضارة ، هو شيء آخر غير الأساس العلمي التجريبي الذي تقوم عليه ..

إنه سيرفض المذهب المادي (الوضعي أو الحسي) الذي يجعل المادة هي الوجود – ولا شيء غير المادة – وقد تحطمت هذه النظرية « علمياً » أو تكاد والحمد لله . والذي يجعل « الإنسان » تابعاً للمادة يتلقى منها فقط ، ويتكون من انطباعاتها – وحدها – عقله وتفكيره وتصوراته ، كما يتكون جسمه سواء ، مع اعتباره سلبياً تجاه المادة سلبية مطلقة (كومت وزملاؤه) .. والذي يجعل تطورات التاريخ في معزل عن إيجابية الإنسان ، ويردها فقط إلى أدوات الإنتاج (كارل ماركس وزملاؤه) .

كما سيرفض كذلك النظرة الحيوانية للإنسان التي أطلقها « دارون » والنظرة القذرة إلى دوافع الإنسان ، وحصرها في وحل الجنس كما يزعم « فرويد » وهو يدرس « الشواذ » ويجعلهم هم « الإنسان » ...

كذلك سيرفض منهجنا ما ترتب على هذه النظرات كلها من إقامة الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وإقامة نظام العمل وطرائق أساس إهدار آدمية الإنسان ، وخصائصه الإنسانية العامة أولاً ، وخصائصه الذاتية الفردية ثانياً ، وخصائص جنسيه المتميزين ثالثاً ؛ واعتباره ترساً في الآلة ، أو بهيمة في القطيع . والاهتمام فقط بمضاعفة الإنتاج ، وبتوفير وسائل إشباع الضرورات الجسدية – فحسب – مع إهدار أشواق الإنسان وحاجاته الأخرى في نظام الحضارة (كما يقرر الدكتور كاريل) من حبه للجمال والفن ونشاطه الأدبي والديني .. (غير أن تصور منهجنا للنشاط الديني لن يكون في تلك الحدود الضيقة التي لا يعرف الدكتور كاريل سواها . بل سيكون معناه – كما قلنا – أن يكون الدين هو منهج الحياة الكلي ، الذي تتحرك في إطاره ، وتتنمو بكل أنواع النشاط الإنساني . ومنه العمل والإنتاج والسياسة والاقتصاد ، والخلق والسلوك . والصلاة والدعاء ، والاتصال بالملأ الأعلى والاتصال بالآلة والإنتاج سواء) .

وسيستدعي هذا تعديلاً في طرق الإنتاج الفنية « بحيث توائم بين الرغبة في مضاعفة الإنتاج والإبقاء على خصائص « الإنسان » العامة ، وخصائص الفرد الذاتية . وتعديل أوضاع الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بحيث توائم كذلك بين استقرار الحياة وتوازنها ، والإبقاء على الخصائص « الإنسانية » و« الفردية » مع الإبقاء – كذلك – على خصائص « الجنسين » من ذكر وأنثى .

* * *

ومنهجنا لن يجد نفسه في مشكلة أمام الاستمتاع بالتيسيرات الحضارية التي تتيحها الحضارة المادية وفنونها المتجددة للإنسان ؛ ولا أمام الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ، وكنوز الأرض ونتاجها مما تتيحه الحضارة المادية ؛ ولن يحدث نكسة إلى رهبانية روحانية كالتي ابتدعتها الكنيسة في أوروبا ، لمقاومة سيل المتاع على الطريقة الرومانية ، أو – بتعبير أصح – للهرب من مواجهة الحياة الدنيا .

فمنهجنا لا ينكر الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ، ولا يجمّد الإبداع المادي في الأرض ، ومن ثم لا يجمّد وسائل المتاع بهذا الإبداع .. بل أكثر من هذا ، هو يعد ذلك جزءاً من وظيفة الإنسان في هذه الأرض . فالخلافة معناها القيام على شؤون هذه الأرض ، واستثمار خيراتها ، واكتشاف كنوزها ، والاستمتاع بطيباتها ، في حدود منهج الله ، مع التوجه لله بالعبادة والشكر والاعتراف على ما سخره للإنسان من طاقات في نفسه ومن مدخرات في هذه الأرض . وكثيراً ما منَّ الله على عباده بما أنعم عليهم من الموارد والتيسيرات التي كانت متاحة لهم حينذاك ، وبشرهم بغيرها مما سيأتي . كما عقب على ذكر نعمة الأنعام ، وما تيسره للإنسان من متاع وراحة ومنفعة وجمال ، فقال بعد ذلك كله «ويخلق ما لا تعلمون» فما من شيء طيب تنتجه الحضارة المادية ، إلا ومنهجنا يعتبر حقاً للإنسان أن يستمتع به في حلال ..

ولكن هذا المنهج يرفض أن يستمتع الإنسان بخيرات الأرض ونتاج الحضارة كما يستمتع الحيوان . يرفض أن يكون الإنسان عبداً للذائذه ، مقهوراً عليها قهراً لا يملك معه إرادته ، ولا يملك أن يقف عند الحد الذي يؤمن معه المتاع ، فلا يؤدي الإفراط إلى الانحلال والدمار .. والبوار .. يرفض أن يكون المتاع في ذاته غاية غايات الإنسان . فالإنسان أكرم من هذا

وأرفع ، وغاية وجوده الإنساني أكبر من هذا وأضخم . وهو لا يكون «إنساناً» إلا بأن يدرك غاية وجوده ، وأن يسيطر على شهواته ولذائذه وأن يقف عند الحد المأمون منها .. بإرادته ..

«والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم» ... (محمد : ١٢)

إن المحافظة على «إنسانية الإنسان» هدف أساسي في هذا المنهج . فهو لا يملك أن يؤدي وظيفته الفذة في الأرض ، إلا بتكوينه هذا الفذ . فأي عامل يؤدي إلى تغيير طبيعته ، أو إتلاف خصائصه ، هو عامل مرفوض من المنهج الإسلامي .

وهكذا نملك – عن طريق هذا المنهج – «وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التي لا تلين لوجوه نشاطنا العضوي والروحي ، وتمييز ما هو محرم مما هو شرعي ، وإدراك أننا لسنا أحرار لنعدل في بيئتنا وفي أنفسنا تبعاً لأهوائنا» .. فهذا المنهج يبين لنا هذا كله .. ولا ينتظر بنا حتى تصل «علوم الإنسان» إلى الحد الذي تجزم فيه برأي في هذه القضية الخطيرة ، التي يتوقف عليها بقاء «إنسانية الإنسان» ، وبقاء الحضارة في المستوى الإنساني . فكل الضروريات الأساسية التي من هذا النوع ، رحمنا الله من توقفها على علمنا – أو حتى على إرادتنا – وجعلها أحياناً تتم بدون إرادة منا ، كهضم الطعام وامتصاصه ، لبقاء الحياة .. وكذلك هنا لم يدعنا نتخبط في جهالتنا لتمييز «ما هو محرم مما هو شرعي» بل بين ذلك في منهجه لحياتنا بياناً شافياً . وأباح لنا الطيبات كلها ، ولم يحرم علينا إلا أشياء قليلة – يعلم هو أنها تؤذينا ، سواء علمنا نحن أم لم نعلم – ورسم لنا الحدود التي نحتفظ فيها بإنسانيتنا وخصائصها ، مع المتاع بطيبات الحياة وتيسيرات الحضارة في كل زمان ...

* * *

ومنهجنا لن يجد نفسه في مشكلة أمام مؤسسات الحضارة الاقتصادية التي يقوم بناء الحضارة الصناعية عليها لشتى مرافق الحياة .. (وإن كنت لا لا أحب أن أدخل في تفصيلات فقهية في هذا الموضوع .. للأسباب التي سأبديها في الفصل التالي) .

ولكنه سيرفض حتماً الأساس الربوي الذي يقوم عليه معظم هذه المؤسسات . سيطهرها من هذا الرجس ، ويخرج منها دود العلق ، الذي يمتص دماء الملايين . ولن يسمح بنظام يجعل حصيلة كد البشرية في جميع أنحاء الأرض : من عمال وصناع وتجار ومديري مصانع وأصحاب أرض وعمائر وصناعات .. كله .. يرجع إلى بضعة آلاف من مؤسسي البيوت المالية وبنوك الإقراض في العالم ، فهؤلاء هم الذين تكد البشرية كلها لتؤدي لهم « فوائد » أموالهم المتداولة في أنحاء العالم . وهؤلاء هم الذين يوجهون الاستثمار ـ مباشرة أم غير مباشرة – إلى المشروعات الأكثر ربحاً – للوفاء بفوائد الأموال – وهي التي تحطم خصائص البشرية وأخلاقها ومقوماتها في الغالب . وهؤلاء هم الذين يسببون الأزمات الدورية المعروفة في النظام الرأسمالي . وهؤلاء هم الذين تنشأ عن خططهم الجهنمية اللعينة أزمات التعطل ، والفساد الخلقي الذي يتبعه . كما تنشأ الخطط الاستعمارية – في صورها المختلفة ، وآخرها « استعمار الاستثمار » بعد ما فشل « استعمار الاحتلال » – وعشرات من النكبات العالمية الأخرى ..

ومن ثم تختفي هذه الويلات التي تعاني منها البشرية كلها ، أو تخف حدتها على الأقل .. حين يختفي النظام الربوي ..

أما المؤسسات الاقتصادية ، فلا ذنب لها في ذاتها ، ولا ضرر منها إذا اختفى هذا العنصر الخبيث (وذلك مع الاحتفاظ بوجهة نظري في عدم وضع أحكام فقهية مفصلة الآن) ..

على أن طرق الإنتاج الحالية ، المؤسسة على قاعدة إنتاج أكبر قدر بأقل أجر .. والتي ينشأ عنها تحطيم خصائص الإنسان في المعامل والمصانع – كما يقول دكتور كاريل – يرجع قسط كبير من سوآتها للنظام الربوي . من ناحية أن الأموال المستخدمة في الاستثمار معظمها قروض ربوية . فهناك حرص شديد – فوق الحرص الذي تنشئه أثرة الرأسمالية وحمى المادية – على الربح ، الذي يفي بفوائد القروض المستثمرة ، وتفضل منه فضلة . ولو كان هذا على حساب إنسانية العامل ، وخصائص الإنسان ..

وتعديل طرائق الإنتاج ليس شيئاً مستحيلاً . فالفكر الإنساني الذي أنشأ هذه الطرائق في ظل أنظمة رأسمالية ربوية – أو مادية مذلة للإنسان بصفة عامة – يملك أن ينشئ طرائق أخرى ، تجمع بين الغايتين كما أسلفنا .. متى رفع عنه كابوس التصورات المذلة للإنسان ، وسياط الفوائد الربوية التي تسوق الاستثمار والإنتاج في كل مكان .

* * *

إن منهجنا هو الذي يقيم الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والتعليمية والتربوية المتكاملة ، التي تعيد «إنشاء الإنسان في تمام شخصيته . الإنسان الذي أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة» كما يريد دكتور كاريل من «علوم الإنسان» أن تفعل !

فإعادة إنشاء الإنسان لا يقدر عليها الإنسان .. إن الذي خلق الإنسان هو الذي يملك أن يعيده ، والذي أنشأه في أحسن تقويم هو الذي يملك أن يرده إلى تقويمه ، بعد أن يكون قد هبط إلى أسفل سافلين :

«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ... (التين : ٤ – ٦)

إن الذي يحاوله دكتور كاريل والعلماء المؤمنون من أمثاله ، أو

الغيورون على «الإنسان» – بصفة عامة – أكبر من طاقة الإنسان . إنهم يطلبون عمل إله وقدرة إله ، وعلم إله ، وهيهات أن ينهض البشر بما هو من خصائص الله ..

إن الإنسانية تتردى في الهاوية .. هذا صحيح .. وتنتحر بيدها .. هذا صحيح .. وتختنق بالظروف العدائية التي أنشأها العلم حولها «الظروف التي تجعل الحياة ذاتها مستحيلة» .. هذا صحيح ..

إن خصائص الإنسان التي بها صار إنساناً ، والتي بدونها لا يملك المضي في خلافة الأرض ، والسيادة على عناصرها .. تدمر تدميراً بشعاً ، والإنسانية لا تدري ، ولا تستمع لأصوات العقلاء الذين ينذرونها بالخطر . وإن استمعت فلا تملك أن تتوقف عن المضي إلى الهاوية ..

وهناك منهج واحد .. واحد لا يتعدد .. هو الذي يملك أن يمد إليها يده بالإنقاذ ..

وهناك طريق واحد .. واحد لا يتعدد .. هو طريق الخلاص ..

ولكن كيف يُقدَّم هذا المنهج للبشرية ؟ وكيف يُشرَع هذا الطريق ؟؟؟ ذلك فصل الختام في هذا الكتاب ...

طريق الخلاص

إن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع . إنما تستجيب لمنهج حي متحرك ، مجسم ، ممثل في حياة جماعة من البشر ، مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد ، وتلاحظ آثاره العقول ...

إنها تستجيب للمنهج الإسلامي في صورة .. مجتمع إسلامي ..

وعلى ما لقيته البشرية من اللأواء والنصب في هاجرة التيه المقفر الذي سارت فيه بلا دليل ..

وعلى كل ما عانته من التجارب القاسية ، والتخبط المؤلم ، وهي تنهض وتعثر ، وتنزف جروحها طوال الطريق .. !

وعلى كل ما يهدد خصائصها من الدمار ، ويهدد حياتها من البوار ، في ظل هذه الحضارة المادية التي أقيمت دون علم بالإنسان ، ودون مراعاة لخصائصه في كل زمان !

وعلى كل ما يدرك العقلاء فيها من جسامة الخطر الذي يتعرض له وجودها ذاته ، وتتعرض له خصائصها الثمينة ..

على الرغم من هذا كله ، فإنه ليس من عادة البشرية أن تستجيب لمنهج مقروء أو مسموع . . ما لم يتمثل في صورة « مجتمع » يعيش بهذا المنهج ، ويعيش له ، وتتمثل فيه خصائصه ومزاياه ..

وألف كتاب عن الإسلام . وألف خطبة في مسجد أو قاعة أو ميدان . وألف فيلم في الدعاية للإسلام . وألف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر في كل مكان .. كل أولئك لا يغني غناء مجتمع صغير يقوم في ركن من أركان الأرض ، يعيش بمنهج الإسلام ، ويعيش لمنهج الإسلام ، وتتمثل فيه خصائص هذا المنهج ، وتتمثل فيه صورة الحياة في الإسلام ! !

وأعداء الإسلام العالميون من الصهيونيين والصليبيين المستعمرين يعرفون هذه الحقيقة جيداً . ومن أجل معرفتهم العميقة بهذه الحقيقة ، هم قد يسمحون بنشر الكتب عن الإسلام – في حدود – وبإلقاء الخطب عن الإسلام – في حدود – وبعرض الأفلام عن الإسلام – في ندرة ! – وبإرسال البعثات للإسلام – في رقابة ! – ولكنهم لا يسمحون أبداً – بما لديهم من سلطات عالمية ضخمة خافية وظاهرة – بقيام مجتمع إسلامي – ولو صغير – في ركن من أركان الأرض – ولو في جزيرة بالمحيط !

ذلك أنهم يعرفون أن هذه هي الوسيلة الجدية الوحيدة «لوجود» الإسلام ! وهم قد عانوا من «وجود» الإسلام طويلاً . إذ حال بينهم وبين أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية للوطن الإسلامي وللمجتمع الإسلامي .. وما صدّقوا أن أجهزوا – كما يتصورون – على هذا الجبار . فهم يفزعون من شبحه ولا يريدون له «الوجود» الفعلي بحال من الأحوال ..

* * *

ولكن المجتمع الإسلامي – مع هذا كله – هو طريق الخلاص الوحيد للبشرية المهددة بالدمار والبوار ..

إنه الاستجابة الوحيدة لنداء الفطرة في ساعة العسرة . والفطرة في ساعة الخطر تتنبه وتعمل ، مهما تكن في خمار أو دوار !

إنه ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية .. ومن ثم فإن الدوافع لبروزه أقوى من كل قوة معوّقة . أقوى من الصهيونية الماكرة والصليبية المستعمرة . وأقوى من الأجهزة المسلطة في كل زاوية من زوايا الأرض .. وأقوى كذلك من جهل أهل الإسلام بالإسلام ؛ وبلادتهم وانغمارهم في التيار الجارف العام !

إنه لا مفر من قيام هذا المجتمع .. المجتمع الإسلامي ..

إنه إن لم يقم اليوم فسيقوم غداً . وإن لم يقم هنا فسيقوم هناك .. ولا نريد أن نتنبأ عن مكان أو زمان ، فنحن – البشر – تقف تقديراتنا دائماً عند ستر الغيب المسدل ، الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله .

* * *

إلا أن الذي ينبغي أن يقال .. هو التحذير من وقع هذه الكلمات ! التحذير من الأمل العريض الذي قد تنشئه في بعض الصدور !

إن حتمية قيام هذا المجتمع بوصفه ضرورة إنسانية لإنقاذ الإنسانية . وبوصفه الترجمة العملية للمنهج الإلهي الذي لا بد غالب ..

إن هذه الحتمية ليس معناها ، أن الطريق إليه نزهة مريحة ؛ ولا أنه هناك على قيد خطوات ..

كلا إن حتمية الميلاد لا تغني من آلام المخاض !

والطريق إلى المجتمع الإسلامي طويل وشاق .. ومليء بالأشواك . وأعسر ما في هذا الطريق هو أن نرتفع نحن بتصوراتنا ، وبأفكارنا ، وبأخلاقنا ، وبسلوكنا – ثم بواقعنا الحضاري المادي – إلى مستوى الإسلام .

ولكنه – بعد هذا كله – ضرورة إنسانية . وحتمية فطرية . ولا بد له من ميلاد . ولا بد للميلاد من مخاض . ولا بد للمخاض من آلام !

* * *

ولا بد من معرفة ملامح هذا المجتمع وخصائصه الذاتية بوجه عام ، ولا بـد من تصور طريقة مواجهته للحضارة القائمة ومنشآتها القائمة ومؤسساتها العاملة . وأوضاعها هنا وهناك .

ولكن متى ينبغي بيان هذا وذاك ؟

فأما المعرفة العامة لملامح هذا المجتمع وخصائصه الذاتية فنعتقد أنها ضرورية منذ الآن ، وقد أشرنا إلى بعضها في ثنايا فصول هذا الكتاب ..

وفي حدود جهدي الخاص : لقد أعددت لهذا بحثاً ضخماً مفصلاً تحت عنوان : « نحو مجتمع إسلامي » وبحثاً آخر عن « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » وكلاهما يكمل الآخر في هذا المجال .

وأما معرفة كيف يواجه المجتمع الإسلامي الحياة الحاضرة ، وكيف يتصرف في أوضاعها القائمة – وعلى الأخص صياغة هذا في قالب فقهي مقنن – فهذا ما أعتقد أن كل كلام فيه – في غير الإطار العام – سابق لأوانه .. بل أشبه شيء باستنبات البذور في الهواء !

إن محاولة وضع أحكام تشريعية فقهية إسلامية لمواجهة أقضية المجتمع الذي تعيش فيه البشرية ، والذي ليس إسلامياً ، لأنه لا يعترف بأن الإسلام منهجه ، ولا يسلم للإسلام أن يكون شريعته ..

إن محاولة وضع أحكام تشريعية لأقضية مثل هذا المجتمع ، ليست من الجد في شيء . وليست من روح الإسلام الجادة في شيء . وليست من منهج الإسلام الواقعي في شيء ..

إن الفقه الإسلامي لا يستطيع أن ينمو ويتطور ويواجه مشكلات الحياة إلا في مجتمع إسلامي ! مجتمع إسلامي واقعي ، موجود فعلاً ، يواجه مشكلات الحياة التي أمامه ، ويتعامل معها ، وهو مستسلم ابتداء للإسلام !

إنه عبث مضحك أن نحاول مثلاً إيجاد أحكام فقهية إسلامية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في أمريكا أو روسيا ، فأمريكا أو روسيا كلتاهما لا تعترف ابتداء بحاكمية الإسلام !

وكذلك الحال بالنسبة لأي بلد لا يعترف بحاكمية الإسلام !

وكل فقه تراد تنميته وتطويره في وضع لا يعترف ابتداء بحاكمية الإسلام ، هو عملية استنبات البذور في الهواء .. هو عبث لا يليق بجدية الإسلام !

إن مشكلات «المجتمع الإسلامي» في مواجهة الحضارة القائمة ، ليست هي مشكلات أي مجتمع آخر . إنها ليست مشكلات جاهزة حتى نهيئ لها حلولاً جاهزة .. إنها مشكلات ستنشأ بشكل خاص ، وبحجم خاص ، وفق ظروف في عالم الغيب ، ووفق ملابسات لا يمكن التكهن بها الآن .. فمن العبث الجري وراء افتراضات لم تقع بعد ، على طريقة «الأرأيتيين»[1] التي يمجها الجادون من مشرعي وفقهاء الإسلام ..

كما أن مشكلات المجتمع الحاضر في مواجهة الحضارة القائمة ليست مشكلات «مجتمع إسلامي» .. فهذا المجتمع الإسلامي لم يوجد بعد – منذ أن اتخذت شرائع غير شريعة الإسلام لتصريف الحياة – لم يوجد ، حتى تكون هذه مشكلاته . والإسلام ليس مطلوباً منه – ولا مقبولاً كذلك – أن يوجد حلولاً فقهية لمجتمع غير إسلامي .. مجتمع أنشأ مشكلاته هذه بسبب أنه لم يعرف الإسلام ؛ أو بسبب أنه هجر الإسلام ، إن كان قد عرفه من قبل ..

ففيم الجهد ؟ وفيم العناء ؟

---

(١) الذين يسألون : أرأيت لو أن كذا وقع .. فما يكون الحكم ؟ ...

إنه ليس الذي ينقص البشرية لقيام مجتمع إسلامي هو وجود فقه إسلامي «متطور» ! إنما الذي ينقصها ابتداء هو اتخاذ الإسلام منهجاً وشريعته شريعة. إن الفقه الإسلامي لكي يتطور، ينبغي أن يجد التربة التي يتطور فيها. والتربة التي يتطور فيها الفقه الإسلامي هي «مجتمع إسلامي» يعيش في العصر الحاضر، بدرجته الحضارية، ويواجه مشكلات قائمة بالفعل، بتكوينه الذاتي .. ومواجهة المجتمع الإسلامي لهذه المشكلات، لن تكون كمواجهة أي مجتمع آخر لها بطبيعة الحال ..

ولكن هذه البديهية – فيما يبدو – لا تبدو واضحة للكثيرين من المخلصين الغيورين على الإسلام «العقلاء» !

ومن أجل ذلك نكرر ونعيد ونزيد في الإيضاح ..

إن كل ما يمكن قوله إجمالاً عن المجتمع الإسلامي .. أنه ليس صورة تاريخية محددة الحجم والشكل والوضع .. وأننا في العصر الحديث لا نستهدف إقامة مجتمع من هذا الطراز، من حيث الحجم والشكل والوضع، إنما نستهدف إقامة مجتمع مكافئ من النواحي الحضارية المادية – على الأقل – للمجتمع الحاضر. وفي الوقت ذاته له روح ووجهة وحقيقة المجتمع الإسلامي الأول، الذي أنشأه المنهج الرباني. باعتباره قمة سامقة في روحه ووجهته وحقيقته الإيمانية وتصوره للحياة، ولغاية الوجود الإنساني، ولمركز الإنسان في هذا الكون، ولخصائصه وحقوقه وواجباته. وقمة سامقة في تناسقه وتماسكه .. أما الشكل والصورة والأوضاع فتتحدد وتتجدد بتطور الزمن، وبروز الحاجات، واختلاف أوجه النشاط الواقعي ... إلى آخر الملابسات .. الملابسات المتغيرة المتحركة .. ولكن التي ينبغي أن يكون تحركها – في المجتمع الإسلامي – داخل إطار المنهج الإسلامي، وحول محوره الثابت، وعلى أساس الإقرار بألوهية الله وحده، وإفراد الله سبحانه بخصائص الألوهية

دون شريك وأولى هذه الخصائص هي حق الحاكمية والتشريع للعباد ، وتطويعهم لهذا التشريع .

ومن ثم فإنه ليس « الفقه » الإسلامي هو الذي نتقيد به في إنشاء هذا المجتمع – وإن كنا نستأنس به – إنما هو « الشريعة » الإسلامية والمنهج الإسلامي ، والتصور الإسلامي العام .

وهذا يتطلب ابتداء ، أن ترتضي جماعة من البشر اتخاذ الإسلام منهج حياة ، وتحكيمــه في كل شأن من شؤون هــذه الحيـاة – أي إفراد الله ، سبحانه ، بالألوهية والربوبية ، في صورة إفراده ، سبحانه ، بالحاكمية التشريعية – ولحظتئذ – لا قبلها – يوجد « المجتمع الإسلامي » .. ويبدأ في مواجهة الحياة القائمة ، بينما هو يكيف نفسه ، وأوضاعه وحاجاته الحقيقية ، ووسائل إشباع هذه الحاجات ، متأثراً بعقيدته ، وما تنشئه من تصورات خاصة ، ومتأثراً بأهدافه ، وما تعيّنه من وسائل خاصة ، ومتأثراً بطريقته المنهجية الخاصة في مواجهة الواقع ، والاعتراف بما هو فطري من هذا الواقع ، وما هو ضروري لنمو الحياة السليمة ، مع رفض ما ليس فطرياً ولا ضرورياً للنمو ، وما هو ضار ومعطل وساحق لهذا النمو ، من ذلك الواقع .. وفي خلال هذه المواجهة – بكل هذه الملابسات – ينشئ أحكامه الفقهية الخاصة ، أولاً بأول ، في مواجهة وضعه الخاص ..

وهنا .. قد يخدم هذا المجتمع الناشئ ما حسبناه وما نزال نحسبه سوء حظ في انقطاع نمو الفقه الإسلامي !

قد تكون هذه خدمة يسرها الله لحكمة ..

ذلك أن المجتمع الوليد سيتجه حينئذ مباشرة إلى شريعة الله الأصيلة . لا إلى آراء الرجال في الفقه . لأنه لن يجد في آراء الرجال – وهي مفصلة لعصور

خاصة ولظروف خاصة - ما يساوي قده ، إلا بعمليات ترقيع وتعديل ..

وعند ئذ يعمد إلى القماش الأصلي الطويل العريض .. (الشريعة) .. ليفصل منه ثوباً جديداً كاملاً ، بدلاً من الترقيع والتعديل !

إن هذه ليست دعوة لإهمال الفقه الإسلامي ، وإهدار الجهود الضخمة العظيمة التي بذلها الأئمة الكبار . والتي تحوي من أصول الصناعة التشريعية ، ومن نتاج الأحكام الأصيلة ، ما يفوق - في نواح كثيرة - كل ما أنتجه المشرعون في أنحاء العالم .

ولكنها فقط بيان للمنهج الذي قد يأخذ به المجتمع الإسلامي الذي ينشأ - عندما ينشأ - وبيان لطبيعة المنهج الإسلامي في إنشاء الأحكام الفقهية . إنشائها في مواجهة الواقع الفعلي للمجتمع الذي يعترف ابتداء بحاكمية الإسلام.

إن تلك الثروة الضخمة من الفقه الإسلامي ، قد ولدت ونشأت ، يوماً بعد يوم ، في مجتمع إسلامي يواجه الحياة بعقيدته الإسلامية ومنهجه الإسلامي ، ويعترف ابتداء بحاكمية الإسلام له ، ولا يعترف بحاكمية منهج آخر غير الإسلام - مهما يكن في سلوكه أحياناً من مجافاة جزئية للإسلام . ولكن الخطأ في السلوك والانحراف في التطبيق شيء ، وعدم الاعتراف ابتداء بحاكمية المنهج الإسلامي كله شيء آخر .. الأول يقع في المجتمع الإسلامي ويظل مع ذلك مجتمعاً إسلامياً ، يصح أن ينمو فيه الفقه الإسلامي ويتطور . والثاني لا يقع إلا في مجتمع غير إسلامي . مجتمع لا يصلح بيئة لنمو الفقه الإسلامي وتطوره ، لأنه مجتمع جاهلي لا علاقة له بالإسلام ، مهما ادعى لنفسه صفة الإسلام !

وشيء آخر ..

إن الفقه الإسلامي ليس منفصلاً عن الشريعة الإسلامية . والشريعة

الإسلامية ليست منفصلة عن العقيدة الإسلامية . والفقه والشريعة والعقيدة ونظام الحياة كل لا يتجزأ في التصور الإسلامي .. ومحال أن يكون هناك إسلام ولا مسلمون ولا مجتمع مسلم ، إذا تمزق هذا الكل الموحد مزقاً وأجزاء !

وفي أي نظام اجتماعي آخر – غير النظام الإسلامي – تكفي المعرفة بأصول التشريع وطرق الصناعة الفقهية ليصبح للرجل القدرة على وضع الأحكام القانونية ..

أما في النظام الإسلامي فإن مجرد المعرفة بأصول الصناعة لا يكفي. فلا بد من أمرين :

١ – مزاولة العقيدة والمنهج في الحياة العامة للأمة .

٢ – مزاولة العقيدة والمنهج كذلك في الحياة الخاصة للمشرّع !

وهذا ما يجب أن نعرفه ، ونحذر من مخالفته ونحن نحاول – الآن تنمية الفقه الإسلامي وتطويره . هذه المحاولات التي تبذلها جمهرة مخلصة من رجال الفقه والشريعة في شتى أنحاء الوطن الإسلامي ممن يريدون أو يشيرون بتنمية الفقه الإسلامي وتطويره ، لمواجهة الأوضاع والأنظمة والمؤسسات والحاجات القائمة في المجتمعات الحاضرة .

إنهم – مع احترامي الكبير لهم والتجاوب مع شعورهم المخلص ورغبتهم المشكورة ، وتقديري للجهد الناصب الذي يبذلونه – يحاولون استنبات البذور في الهواء .. وإلا فأين هو « المجتمع الإسلامي » ، الذي يستنبطون له أحكاماً فقهية إسلامية يواجه بها مشكلاته ؟

المجتمع الإسلامي هو الذي يتخذ المنهج الإسلامي كله منهجاً لحياته كلها . ويحكّم الإسلام كله في حياته كلها ، ويتطلب عنده حلولاً

لمشكلاته . مستسلماً ابتداء لأحكام الإسلام . ليست له خيرة بعد قضاء الله ..

فأين هو هذا المجتمع اليوم ؟ أين هو ؟ في أي زاوية من زوايا الأرض ؟

إن كل حكم فقهي يوضع الآن لمواجهة مشكلة قائمة في المجتمعات التي ليست إسلامية ، لن يكون هو الذي يصلح ويواجه الواقع في مجتمع إسلامي . لأن هذه المشكلة ذاتها قد لا تقوم أصلاً في المجتمع الإسلامي حين يقوم . وإذا قامت فلن تكون هي بحجمها وشكلها ، ولن تكون طريقة المجتمع في مواجهتها – وهو إسلامي – هو طريقته في مواجهتها وهو غير إسلامي ؛ ولأن عوامل شتى ، وملابسات شتى ، تجعل طبيعة المجتمع الإسلامي وطريقته في مواجهة الحياة والمشكلات غير طبيعة وطريقة المجتمعات غير الإسلامية .

هذه بديهية .. فيما أظن ..

إن أبا بكر وعمر وعلياً . وابن عمر وابن عباس . ومالكاً وأبا حنيفة وأحمد بن حنبل والشافعي .. وأبا يوسف ومحمداً والقرافي والشاطبي .. وابن تيمية وابن قيم الجوزية والعز بن عبد السلام وأمثالهم (عليهم رضوان الله) .. كانوا – وهم يستنبطون الأحكام – :

أولاً : يعيشون في مجتمع إسلامي يحكّم الإسلام وحده في شؤونه ، ويتخذ الإسلام وحده منهجاً لحياته – حتى مع بعض المخالفة الجزئية في بعض العصور – ويواجهون الحياة بهذا المنهج وبآثاره في نفوسهم .

ثانياً : يزاولون العقيدة الإسلامية والمنهج الإسلامي في حياتهم الخاصة ، وفي إطار المجتمع الإسلامي الذي يعيشون فيه . ويتذوقون المشكلات ويبحثون عن حلولها بالحس الإسلامي ..

ومن ثم كانوا مستوفين للشرطين الأساسيين لنشأة فقه إسلامي ، وتطوره ليواجه الأحوال المتطورة . فوق استيفائهم طبعاً لشروط الاجتهاد ، والتي لا مجال هنا ولا داعي لبيانها لأنها بديهية !

فأما الآن .. فماذا ؟؟

إنه لا بد أن نحسب حساب عوامل كثيرة ، تبعد نمو الفقه الإسلامي وتطوره الآن عن منهجه الأصيل .

لا بد أن نحسب بعد الواقع العملي ، والواقع النفسي والعقلي ، والواقع الشعوري والاعتقادي ، عن جو الإسلام والحياة الإسلامية ..

ولا بد أن نتذكر أن المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا ليست مشكلات مجتمع إسلامي ، حتى نستنبط لها أحكاماً فقهية إسلامية !

ولا بد أن نحسب حساب الهزيمة العقلية والروحية أمام الحضارة الغربية ، وأمام الأوضاع الواقعية .. والإسلام يواجه «الواقع» دائماً . ولكن لا ليخضع له ، بل ليخضعه لتصوراته هو ، ومنهجه هو ، وأحكامه هو ، وليستبقي منه ما هو فطري وضروري من النمو الطبيعي ، وليجتث منه ما هو طفيلي وما هو فضولي ، وما هو مفسد .. ولو كان حجمه ما كان .. هكذا فعل يوم واجه جاهلية البشرية ، وهكذا يفعل حين يواجه الجاهلية في أي زمان .

إن أولى بوادر الهزيمة هي اعتبار «الواقع» أياً كان حجمه هو الأصل الذي على شريعة الله أن تلاحقه ! بينما الإسلام يعتبر أن منهج الله وشريعته هي الأصل الذي ينبغي أن يفيء الناس إليه ، وأن يتعدل الواقع ليوافقه . وقد واجه الإسلام المجتمع الجاهلي – العالمي – يوم جاء ، فعدله وفق منهجه الخاص ؛ ثم دفع به إلى الأمام .

وموقف الإسلام لا يتغير اليوم حين يواجه المجتمع الجاهلي – العالمي – الحديث . إنه يعدله وفق منهجه . ثم يدفع به إلى الامام .

وفرق بين الاعتبارين بعيد . فرق بين اعتبار «الواقع» الجاهلي هو الأصل . وبين اعتبار المنهج الرباني هو الأصل ..

إنني أنكر وأستنكر استفتاء الإسلام اليوم في أية مشكلة من مشكلات هذه المجتمعات . احتراماً للإسلام وجديته .. وإلا فأي هزء واستخفاف أشد من أن تجيء لقاض تطلب حكمه ، وأنت تخرج له لسانك . وتعلنه ابتداء أنك لا تعترف به قاضياً ، ولا تعترف له بسلطان . وأنك لن تتقيد بحكمه إلا إذا وافق هواك ! وإلا إذا أقرك على ما تهواه !

إن الإسلام لا علاقة له بما يجري في الأرض كلها اليوم ؛ لأن أحداً لا يحكّم الإسلام في حياته ، ولا يتخذ المنهج الإسلامي منهجاً لمجتمعه . ولأن أحداً لا يحكم بشريعة الله وحدها ، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها ، ولا يجعل الكلمة الأولى والأخيرة في شؤون الحياة كلها لله ولشريعة الله .

والذين يستفتون – بحسن نية أو بسوء نية – هازلون ! والذين يردون على هذه الاستفتاءات – بحسن نية أو بسوء نية – والذين يتحدثون عن مكان أي وضع من أوضاع البشرية الحاضرة من الإسلام ونظامه ، أشد هزلاً .. وإن كنت أعلم عن الكثيرين منهم أنهم لا يعنون الهزل ولا يستسيغونه – لو فطنوا إليه في شأن الإسلام ! إنما يستفتى الإسلام في الأمر حين يكون الإسلام وحده هو منهج الحياة . ذلك عند قيام المجتمع الإسلامي. المجتمع الذي يتخذ الإسلام شريعته ولا تكون له شريعة سواه – عندما يأذن الله ويشاء .

وثقتنا في رحمة الله بالبشرية تجعلنا نرجو دائماً أنه – سبحانه – سيأذن بهذا ويشاء ..

فقيام هذا المجتمع – كما قلنا وكما نكرر – ضرورة إنسانية ، وحتمية فطرية ، وتلبية لنداء الفطرة في ساعة العسرة ..

وإن كانت حتمية الميلاد لا تغني شيئاً عن آلام المخاض ..

* * *

ولكن كيف ؟ وهذا الواقع البشري الضخم يواجه الإسلام ؟

على الذين يسألون هذا السؤال أن يتذكروا كيف وقع هذا الأمر أول مرة !

لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله ؛ ويقول لها – كما أمر – : إنها في جاهلية ، وإن الهدى هدى الله ..

ثم تحول التاريخ .. تحول حين استقرت هذه الحقيقة الهائلة في قلب ذلك الرجل الواحد . تحول على النحو الذي يعرفه الأصدقاء والأعداء !

هذه الحقيقة التي استقرت في قلب ذلك الرجل الواحد ، ما تزال قائمة قيام السنن الكونية الكبرى .. وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك وقد عادت إلى جاهليتها !

وهذا هو الأمر في اختصار وإجمال ..

توجد نقطة البدء . نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب .. في عدة قلوب .. في قلوب العصبة المؤمنة .. ثم تمضي القافلة في الطريق .. في الطريق الطويل .. الشائك .. الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة – فيما عدا بعض الاستثناءات – ثم تصل القافلة في نهاية الطـريق

الطويل الشائك .. كما وصلت القافلة الأولى ..

لست أزعم أنها مسألة هينة . ولا أنها معركة قصيرة .. ولكنها مضمونة النتيجة .. كل شيء يؤيدها .. كل شيء حقيقي ، وفطري ، في طبيعة الكون ، وفي طبيعة الإنسان .. ويعارضها ركام كثير . ويقف في طريقها واقع بشري ضخم . ولكنه غثاء ! ضخم نعم .. ولكنه غثاء !

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

المحتويات

رقم الايداع : ٨٨/٣٠٥٢
الترقيم الدولى : ٩ ـ ٢١٤ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧١٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

مكتبة سيد قطب

في ظلال القرآن
العدالة الاجتماعية في الإسلام
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
النقد الأدبي أصوله ومناهجه
كتب وشخصيات
الإسلام ومشكلات الحضارة
التصوير الفني في القرآن
مشاهد القيامة في القرآن
معركتنا مع اليهود
تفسير سورة الشورى
تفسير آيات الربا
دراسات إسلامية
السلام العالمي والإسلام
معركة الإسلام والرأسمالية
في التاريخ فكرة ومنهاج
معالم في الطريق
هذا الدين
المستقبل لهذا الدين
نحو مجتمع إسلامي